

خاتمة

يعد الأديب العالم والناقد المتذوق الرافعي واحدا من أفاذ العلماء العرب والمسلمين في عصرنا الحديث الذين أسهموا بقسط وافر من الدراسات الأدبية والنقدية التي قامت حول قضية الإعجاز في القرآن الكريم.

ولم يكن غريبا من الرافعي أن يتصدى لهذا المجال العميق والدقيق من مجالات الدراسات الأدبية والنقدية التي دارت حول البيان القرآني المعجز، فهو الذي أمضى حياة حافلة في خدمة العربية وآدابها، والكتاب المبين الذي أنزل بلسانها، وهو الذي آلى على نفسه أن يكون لهذا الدين وكتابه القويم حارسه وحاميه.

وقد حدث أن نشرت إحدى الصحف مقالا لأحد الكتاب تناول فيه القرآن بسوء التأويل، فقال يخاطب صديقا له : من تراه يا بني يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعي؟

وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته، وأن فصاحة هذه اللغة ليست فقط في ألفاظها، ولكن في تركيب ألفاظها، كما أن الهزة والطرب ليست في النغمات ولكن في وجوه تأليفها، وهذا هو الفن كل الفن في الأسلوب، لأنه يرجع إلى الذوق الموسيقي في حروف هذه اللغة وأجراس حروفها ... ومن ثم أخذ في إيضاح تلك النظرية الفنية الأسلوبية، التي تتميز بها العربية، والتي اختارها الله سبحانه لتكون خطابه إلى العالمين متمثلا في هذا القرآن العظيم منهج الرافعي في (إعجاز القرآن) لم يشأ الرافعي منذ أن بدأ كتابه (إعجاز القرآن) أن يطلق القول في هذا الإعجاز دون تحديد لمنهجه فيه، لذلك أشار في مقدمته إلى هذا المنهج الذي اتبعه وكان مما قاله: "وبعد ... فإننا سنقول في القرآن الكريم ما يتعلق بلغته ويتصل ببلاغته ويكشف من أوجه الإعجاز في ذلك". ومن ثم خرج كتاب (إعجاز القرآن) للرافعي في ترتيب منظم، وتبويب منطقي، التزم به منذ المقدمة حتى نهاية الحديث عن الإعجاز، وما دخل بابا وانتهى منه إلا ليسلمه للذي يليه، حتى وصل إلى فكرته الأساسية في الإعجاز، وهي متمثلة في نظم القرآن، وإعجاز تأليفه، ثم أخذ يتدرج مع فكرة النظم هذه منتبعا الحروف وأصواتها إلى الكلمات وحروفها، إلى الجمل وكلماتها، حتى تأكد له بعد هذه الدراسات المتصلة غرابة الأوضاع التركيبية في القرآن الكريم بعد أن تجلت فيه تلك الروح التي أودعها الله آياته المحكمات، والتي لا يمكن أن يدرك كنهها أحد إلا الله وحده منزل القرآن ومن هنا يحدد حقيقة الإعجاز التي ارتضاها واطمأن إليها في ناحية النظم، ولذا كانت مقدماته من قبل تمهيدا للحديث عن الأسلوب القرآني، وأن هذا الأسلوب هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، وأن العرب لما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بعينها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه ونسق حروفه في كلماته،

وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملة ما أذهلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة فالنظم وليس غيره- هو مناط الإعجاز الذي اعتد به الرافعي، لأنه آية الجمال والجلال في هذا القرآن الكريم. وكذلك تناول موضوع النظم بالشرح والتحليل وجعله الفكرة الأساسية التي دار حولها في كتابه إعجاز القرآن.

وبعدما استعرضنا الآراء في مفهوم النظم خاصة عند الجرجاني والرافعي نصل إلى الخلاصة التالية:

- أن النظم عند الجرجاني تأليف وطريقة التصوير والصياغة .

- النظم ليس في اللفظة المفردة أو في المعنى المستقل كل عن الآخر.

- النظم هو التعليق .

- النظم هو توحي معاني النحو وأثبت في الدلائل المزية التي كان بها الأعجاز في النظم لا في اللفظ أو المعنى وتلك هي البلاغة والتقديم والتأخير والحذف والفصل والقصر ووجوه الخبر والحال كل هذه إنما تتبع المعنى وتتغير تبعاً لتغيره وإذا زاد على جزء الجملة زاد ذلك في المعنى وتوالي الألفاظ ليس له معنى ما لم تتناسق دلالتها وتلاقت معانيها على ما يقتضيه العقل.

هذه أهم النقاط المتعلقة بالنظم عنده.

أما الرافعي فقد حدد منهجه في كتابه إعجاز القرآن بترتيب وتبويب متسلسل منطقي حتى النهاية كل باب يسلم إلى الآخر حتى وصل إلى القول في الإعجاز المتمثلة في نظم القرآن وهو مناط الإعجاز وآية الجمال والجلال و إعجاز تأليفه متتبعاً حروف القرآن وكلماته وجملة وينتهي بذلك إلى غرابة التركيب التي أودعها الله في كتابه وهي البلاغة التي عجز عنها العرب .

إن الرافعي يحدد طريقة النظم بشكل أدق يخالف فيها طرق السابقين كالجرجاني ولم ينظر إليها بطريقة عامة وإنما تعتمد على ذوق أعمق وأدق مما رآه الجرجاني فلم يحصر فكرة النظم في توحي قواعد النحو والعلاقة بين الكلمات ومراعاة المعاني ولكنه أولى عناية فائقة بين الحروف في نفسها و أصواتها ودلالاتها بينما الجرجاني في هذا لم يرها إلا تواليها في النطق فكانت نظرتة أبعد في النظر إلى الحروف ثم الكلمات وحروفها ثم الجمل و كلماتها .

وإذا كان الجرجاني لا يولي كبير اهتمام بالكلمة المفردة قبل أن تنظم إلى غيرها وتدخل في التركيب إلا بقدر ما تكون مألوفة غير مبتدلة ولا ثقيلة ولا يرجع الإعجاز فيها إليها وإنما الإعجاز في تأليف هذه الكلمات و نظمها فإن الرافعي يرى الكلمة وحتى الحرف هو معجز بلفظه وقد تكون الكلمة من الجملة أو الحرف أبلغ في الإيحاء والتصوير من تركيب متعدد للكلمات وقد تكون الروعة في الكلمة

الواحدة وما فيها من جرس من خلال تركيب حروفها و دلالتها و ما فيها من قوة أو ضعف مما يعطيها تأثيرا وإيحاء خاصا في النفوس مما يدل على التنوع الأدبي المتميز لمعجزة الأدب العربي الرافعي.

مقدمة

النظم مرتبط بإعجاز القرآن و يكفيك شرفا أن تدرس أشرف كتاب و نواحي الإعجاز فيه، و قد جاء الجرجاني بمسألة النظم بشكل متميز، مغايرا لمن أشار إليه قبله، و ربطه بمسألة اللفظ و المعنى، و لفت الأنظار لينظر إليه في هذا الاتجاه من الإعجاز، فأسال حبرا كثيرا، و فتح هذا الباب ليوسع دائرة البحث فيه " إنا إذا كنا نعلم الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن و ظهرت و باننت و بهرت هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر و منتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر وكان محالا أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب و عنوان الأدب الذي لا يشك أنه ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة و البيان و تنازعوا فيهما قصب الرهان.¹ و قد عمدت إلى البحث في هذا الموضوع للأسباب التالية:

- أن تناول الإعجاز من جانب النظم يحتاج إلى توضيح أكثر و مزيد من العناية و الإضافة فيه.
- أنني وجدت في كتاب الرافعي نظرة أخرى في جانب النظم و جديدة تستحق المزيد من التعمق و الدراسة.
- أن الدراسة الحديثة تكاد - في أغلبها - تقف عند ما انتهى إليه الجرجاني، فجاء الرافعي ليسلط الضوء و يقلب الصفحة و يفتح آفاقا تتجاوز ما توقف عنده الأقدمون .
- أن أزيل الغبار عن كتاب الرافعي، هذا الرجل المغمور وكتابه المهجور و الذي لم يعط حقه من الدراسة و النقد - إلا عند بعض المهتمين بجانب الإعجاز- وإذا درسنا كتابه نجده قد أمدّ الساحة الأدبية بدرر و فرائد ندية، لم نلمس عند الكثير من روادها ما يبرزها و يكشف عن دررها. " و لقد أفاد الأدب العربي و لغته، و انتفعت حقول الفكر و ميادين الثقافة من جهود الرافعي في النقد إفادة غير محدودة.² و قد أثنى بعض الكتّاب كالدكتور فتحي عبد القادر على كتاب الرافعي قائلا: " من أبرز الأسباب التي كتبت للرافعي الشهرة و المجد و علو المنزلة بين دارسي الإعجاز، وجعلت لكتابه " إعجاز القرآن" نمطا معيناً بين ما كتبه القدامى و المحدثون عن الإعجاز القرآني ما كتبه من انسجام الحروف و أثره في البلاغة القرآنية"³ .

ثم إن الرافعي كان نسيجا وحده بلا خلاف، و قد ظلم بالنسبة إلى من سواه لدى مؤرخي الأدب المعاصر حيث تعرض إلى حملات ظالمة شنّها عليه أعداؤه الكثيرون، و لعل أدب الرافعي لم يرق

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المحقق الشيخ محمد عبده، و الشيخ محمد محمود الشنقيطي، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت لبنان، ص7.

² فضل حسن عباس و سناء فضل عباس، إعجاز القرآن، دار النفائس، الأردن، ط7، 2009، ص86.

³ المرجع نفسه ص 90 .

لكثير من قارئيه أو لم يرقوا هم إلى مستوى فهمه فجهلوا أدبه و لم يعرفوا للرجل حقه. لذلك اقترح الدكتور محمد رجب البيومي أن يعتمد إلى مقالات الرافعي في "وحي القلم" و "أوراق الورد" و "السحاب الأحمر" و "رسائل الأحزان" فنختار من كل مقال ما يسهل تناوله مع الناشئة، و نبدأه بتقديم يوضح مراميه، و نختمه بأسئلة تشير إلى محتوياته، فبذلك نيسر أدب الرافعي على الناشئة فينتفعون به سموًا و توجبها و إيمانًا، و كذلك نفعل في كتاب " إعجاز القرآن".

لأنَّ حقائقه قوية تغلف كثيرا في صياغة متأبئة إلا من عرف معادن البيان ... و هنا يكون تراث الرافعي متداول الصفحات، مشتهر الخواطر بين جمهرة القراء، و هنا نهتك حجاب الصمت الذي غلف إنتاج الأديب النابغة في هذه الأيام.¹

و قد تناولت الدراسات السابقة مسألة الإعجاز في النظم و درسته من جانب النحو والبلاغة وأفاضت فيه. و لما جاء الرافعي فرآها أعم من ذلك و أشمل، و درس العلائق المناسبة و الروابط بين الحروف و الكلمات والجمل بمنظور جمالي، لم تلق هذه النظرة حظها من العناية إلا نادرا في بعض المقالات و بحوث بسيطة و لمحات عابرة، و لم أجد -في اطلّاعي المحدود- في الكتب إلا كتاب "إعجاز القرآن" للدكتور فضل حسن عباس و سناء فضل عباس من الذين أولوا اهتماما بكتاب الرافعي، و ما أشارا إليه حول دراسة لكتابه للدكتور فتحي عبد القادر بعنوان " بلاغة القرآن في أدب الرافعي" و لست أدري - فالأيام حبلى بكل جديد- فرما صدرت مؤخرا دراسات لكتابه لم يسعدني الحظ للإطلاع عليها.

و قد عرف النقد العربي مصطلحات كثيرة مثلت نظرية النظم بشكل خاص ما بين القرنين الثالث و الخامس الهجريين محطة اهتمام للنقاد من لدن الجاحظ إلى من جاء بعده وصولا إلى الجرجاني حيث وصلت طورها و نضجها. و هذه محاولة في التراث النقدي العربي، ضمن دراسة شمولية لنظرية النظم لعلها توقفت أو كادت حتى ظهرت بثوب أجمل و رؤية أبعد و مفهوم أدق مع مصطفى صادق الرافعي. فما الذي يمكن أن يرفع الرافعي على غيره في هذا الباب، و ما الذي أضفاه و ساهم به في هذه النظرية؟

و اعتمدت في هذا البحث المنهج التاريخي و المنهج المقارن، فتحدثت عن الأطوار التي مرّ بها النظم و العلماء الذين تطور المصطلح على أيديهم عبر أزمنة مختلفة. و قارنت بين المفاهيم عند

¹ أنظر محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم، دمشق، ج 1، ص 431.

من تناول النظم كالجاحظ و الخطابي الباقلاني و خاصة بين عبد القاهر الجرجاني الذي يمثل الدراسات القديمة و بين الرافعي الذي يمثل الدراسة الحديثة.

و قد قسمت مذكرتي إلى فصول ثلاثة . تناولت في الفصل الأول منها الحديث عن العرب وحياتهم و بيئتهم و ثقافتهم، لنبين أن العرب لم يتميّزوا عن غيرهم من الأمم إلا في البلاغة و حسن البيان و أن الفصاحة حرفتهم و من هذه الجهة كان تحدي القرآن. و إلا لو تحدّاهم بغير هذا الوجه مما لا يحسنونه لا يعد ذلك إعجازاً، و قد دعاهم إلى أن يأتوا بمثله فيما نبغوا فيه و فاقوا سائر الأمم. و بيّنت في هذا الفصل أن التحدي و الإعجاز كان من جانب الفصاحة و البلاغة والبيان، و هو ما اصطلح عليه بالنظم الذي يشمل هذه الجهات كلها. و ذكرت أقوال الكثير من العلماء أن القرآن معجز بنظمه و تفرد في البلاغة، و هذا أمر متفق عليه إذا استثنينا النظام القائل (بالصرفة) أي أن الإعجاز كان بصرف العرب عن التحدي و أن الله منعهم من ذلك، و يبقى الخلاف في الجوانب الأخرى، كالأمر الغيبية و أخبار التاريخ، و القضايا العلمية هل هي مقصودة بالتحدي أم لا ؟ .

و تحدثت بعد ذلك عن نشأة النظم و تطوره، و كيف كان المفهوم عند غير الجرجاني، فقد كان محصوراً مرة في البلاغة، و مرة في الفصاحة، وأحياناً في جانب اللفظ، و أخرى في جانب المعنى. و أتى الجرجاني ليبين أنّ النظم يتناول هذه الجوانب كلها، و يضع حداً للنزاع بين أنصار اللفظ و أنصار المعنى. و هكذا وضحت و تبلورت فكرة النظم عند الجرجاني.

و لما كان الإعجاز في القرآن من هذه الجهة، تناولنا في الفصل الثاني الحديث عن الإعجاز، حتى لا أقفز و أتجاوز إلى مرحلة الحديث عن النظم عند الرافعي الذي هو موضوع مذكرتنا، مراعيًا التسلسل و التمهيد للحديث عن مفهوم النظم عند الرافعي، فتناولت تاريخ الإعجاز و من كتبوا فيه و الجهود التي بذلت، و مذاهب كل من كتب فيه، و لما وجدت رأيهم يجتمع غالباً في قضية النظم - على اختلاف رؤاهم في مفهومه- بيّنت الأسس التي بنيت عليها نظرية النظم، خاصة عند رائدها الجرجاني. و لما كان تأكيد الجرجاني في قضية النظم على توخي معاني النحو، أوضحته بأمثلة حتى يعرف الطالب بشكل ميسور مقصود الجرجاني بمعاني النحو، فبالمثال يتضح المقال، فمما يعاب على الكثير من الدراسات و المدرسين أن يهملوا جانب التمثيل و التطبيق الذي هو أقرب وسيلة للفهم، و ربما أغنى عن كثير من الكلام، و أمكن لكل دارس أن يتصور المفهوم بشكل واضح، و من ثمّ انتقلت إلى الحديث في الفصل الثالث - و هو يمثل الجانب التطبيقي- عن النظم عند الرافعي، و مهدت لهذا الفصل بالحديث عن الجمال و الجمالية في الأدب بصفة عامة، و عن النظم بصفة خاصة. فمعروف عن الرافعي تدوقه للأدب وجماليته و إحساسه المرهف و شاعريته التي يسمو بها كما قال: " عابوا السمو الأدبي بأنه قليل و لكن الخير كذلك، و بأنه مخالف و لكن

الحق كذلك، و بأنه محير و لكن الحسن كذلك، و بأنه كثير التكاليف و لكن الحرية كذلك، و إن لم يكن البحر فلا تنتظر الدر، و إن لم يكن السحاب فلا تنتظر المطر، و إن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد، و إن لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر البيان." و بيّنت في هذا الفصل أن النظم عنده الجمل و كلماتها، و الحروف و أصواتها، و الكلمات و حروفها، و قد فصل في هذا الجانب في قضية النظم و طريقة النسق في الجملة حسب ما توجهه المعاني، دون اضطراب أو التواء، وانتهيت إلى مفهوم جديد للنظم، حيث لم يبق محصوراً في مفهوم توخي معاني النحو، و علائق الكلم و طريقة التصوير و الصياغة، و هو بذلك يواكب الدراسات الأسلوبية الحديثة و تحليلها للنصوص. و ربما أستطيع القول: أن المفهوم الدقيق للنظم بدأ بالرجاني و توقف عند الراجعي، و ينتظر الغاية التي سينتهي إليها إذا كانت له غاية.

الفصل الأول

أمة العرب

1-1 أحوال العرب وأدبهم.

2-1 البلاغة عند العرب وتحدي القرآن.

3-1 بيان وجه الإعجاز في النظم .

4-1 نشأة النظم وتطوره .

الفصل الثاني

الإعجاز في القرآن

1-2 تاريخ الإعجاز وجهود الأقدمين.

2-2 من كتبوا في الإعجاز قديما وحديثا و مذاهبهم.

3-2 الأسس التي بنيت عليها نظرية النظم.

4-2 النظم ومعاني النحو.

الفصل الثالث

النظم عند الرافعي

1-3 الجمال والجمالية في النظم.

2-3 الجمل و كلماتها.

3-3 الحروف و أصواتها.

4-3 الكلمات و حروفها.

ملحق

• قائمة المصادر و المراجع

*القرآن الكريم.

*الحديث النبوي الشريف.

1. ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر للطباعة والنشر، لبنان، ط1 ، سنة 1992.
2. أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ج1.
3. ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد ،المقدمة ،تح درويش جويدي ،المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، دط، 2002م.
4. ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، طبقات الشعر والشعراء ،عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ، ط1 ، 2003.
5. ابن القيم الجوزية ، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د ط- د ت.
6. إبراهيم خليل، في نظرية الأدب وعلم النص ، منشورات الاختلاف .الجزائر العاصمة، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ط 1، سنة 2010.
7. أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، الإدارة العامة للنشر، 21ش احمد عرابي ، الجيزة ، ص.ب إمبابة ، 2005.
8. أحمد ناصر ناصر، النحو الميسر، ألفا للنشر والتوزيع، الهرم، الجيزة، مصر، 2010، ط1.
9. أم الخير بن الصديق، النظرية النحوية عند الجرجاني وتطبيقها في المقررات اللغوية التعليمية لأقسام السنة الثانية ثانوي آداب، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة .قسم اللغة العربية و آدابها.
10. أحمد كمال زكي، دراسات في النقد الأدبي، الشركة المصرية العلمية للنشر، القاهرة، ط1، س1997.
11. أمير حلمي، فلسفة الجمال ، دار قوباء للطباعة والنشر ، مصر ، ط 1 1998 م.
12. احمد رحمانى، نظريات نقدية وتطبيقاتها، مكتبة وهبة القاهرة، ط1 1425، 2004م.
13. أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، سنة 2012، ج 1 .
14. بلقاسم بغدادى ،المعجزة القرآنية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر . د.ط .1992.
15. بيان شاكر جمعة ، ومحمد حمد شبيب، قراءة في نظرية النظم ، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية ،المجلد الأول ،العدد الأول، 2009 .

16. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج2.
17. جمال حضري، المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 2010 م .
18. حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت، ط 29، 1985.
19. حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية، بيروت، لبنان، ط 6، .
20. حبور عبد النور، في المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط2، 1984.
21. خلق خازر الخريشة، الصوت والنغم، سلسلة منشورات عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة اليرموك، س 1992.
22. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط 16، 1423هـ، .
23. " " النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط 10، 1410هـ.
24. سعيد حسن البحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة مطبعة العمرانية للأوفاست.
25. سناء حميد البياتي، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم. دار وائل للنشر عمان، ط 1، س 2003.
26. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، س1966.
27. صالح بلعيد، نظرية النظم، دار هومة للطباعة والنشر، بوزريعة، الجزائر، 2004 .
28. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المحقق الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد محمود الشنقيطي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان .
29. عبد الكريم هلال خالد، أسس النقد الجمالي في تاريخ الفلسفة، منشورات قار يونس، بنغازي ليبيا، ط1، 2003.
30. عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2000.
31. عقيل مهدي يوسف، الجمالية بيت الذوق والفكر، مطبعة سلمى الفنية، بغداد، ط1، س1988.
32. عدنان محمد رشيد، دراسات في علم الجمال، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، س 1985.
33. عز الدين بوبيش، حقيقة الإعجاز القرآني عند الرافعي، التراث العربي.

34. عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دت.
35. عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط8، ج 3، س1987.
36. عبد العظيم المعطي، خصائص التعبير القرآني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1.
37. فضل حسن عباس، د:سناة فضل عباس، انظر إعجاز القرآن الكريم، دار النفائس، عمان الأردن، ط 7، 2009.
38. فيليب حتي، العرب تاريخ موجز، دار العلم للملايين، ط 5، 1980.
39. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 1974، ج 1.
40. محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة 1994.
41. محمد علي الصابوني، صفة التفاسير، دار الجميل، بيروت ط 1، 2000، ج 3.
42. مختصر سيرة ابن هشام، إعداد محمد عفيف الزعبي، مراجعة عبد الحميد الأحذب، دار النفائس، ط 2، 1979، بيروت.
43. محمد بن سعيد بن رسلان، فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين، نشر دار العلوم الإسلامية، القاهرة دط، 1989.
44. محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية وآثرها في تفسير الدراسات البلاغية، دار التضامن، القاهرة، ط 2، 1988.
45. محمد صالح الصديق، من روائع الإعجاز، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، 2005.
46. محمد تحريشي، النقد والإعجاز، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004.
47. محمد مندور، في الميزان الجديد، نهضة مصر، القاهرة، 2004م.
48. محمود أحمد حسن المراغي، في البلاغة العربية، علم البديع، دار العلوم العربية، بيروت ط 1، س 1991.
49. منير سلطان، الإيقاع في شعر شوقي الغنائي، منشأة المعارف الإسكندرية، ط 1، س 2000.
50. محمد الصالح خرفي، بين ضفتين، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2005.

51. محمد مرتاض ، مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية
الجزائر، د ط، 1989.
52. محمد بولحية، الأسلوب البلاغي في القرآن الكريم، (سورة الكهف نموذجا)،مذكرة لنيل
شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها ،تخصص البلاغة والأسلوبية، جامعة الحاج
لخضر،باتنة، السنة الجامعية2009-2010 .
53. محمد مرتاض، مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، بن
عكنون الجزائر، د ط ، سنة 1998.
54. نبيل راغب، التفسير العلمي للأدب ، نحو نظرية عربية جديدة ، دار نوبار للطباعة،
القاهرة، ط1، سنة 1997 .
55. يحي بن حمزة العلوي، الطراز، مطبعة القطف، مصر، 1914، ج3.

حياة عبد القاهر الجرجاني في سطور

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، نسبة إلى جرجان المدينة الفارسية العريقة التي تقع بين طبرستان وخراسان ينتسب إليها عدد وافر من رجال العلم والأدب والفقه والحديث.

لم يذكر المؤرخون شيئاً عن طفولته، وأسرته ونشأته وكثير من أمور حياته ، حتى نسبه توقف لديهم عند جده (محمد) ولم يتوغلوا قيد أنملة فوق ذلك من عدم إحاطة ببيئته وأسرته وتعلمه وتقله وأساتذته وتلاميذه وشؤون كثيرة تتعلق به من قريب أو بعيد. ويتلخص ما جاء في مصادر ترجمته أنه:

أشعري ، شافعي ، نحوي، بياني، متكلم، فقيه ، مفسر وشاعر.

كما أنه كان ورعا قانعا، حيث قال أحمد بن محمد السلفي :

"دخل عليه لص وهو يصلي، فأخذ ما وجد وهو ينظر وهو في الصلاة فما قطعها"

ويعد كتاب "دمية القصر وعصرة أهل العصر" لأبي الحسن علي بن الحسن الباخري (467 هـ)

أقرب ما يكون لعصره وحياته وبيئته... ومع ذلك لم يزد في ترجمته له على خمس صفحات .

ومما جاء فيه : " انفقت على إمامته الألسنة، وتجملت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة وأثنى عليه طيب العناصر، وثنيت به عقود الخناصر، فهو فرد في علمه الغزير، لا بل هو العلم والفرد في الأئمة المشاهير.."

وأما خصاله وطبائعه النفسية فلم يشر أحد إليها إلا عرضا ويكلمات خاطفة . كقول " تاج الدين السبكي "

"صار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات ومع الدين المتين والورع والسكون "

أما أساتذته لم يزيدوا على اثنين أخذ عنهما :

الأول : أبو الحسن محمد بن حسن بن عبد الوارث الفارسي النحوي .

الثاني : أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني المعروف ب: القاضي الجرجاني" (ت392هـ).

أما تلاميذه فالحديث عنهم لا يروي غليلا . إذ ذكر له تلميذان فقط هما:

. علي بن زيد الفصحي .

. وأبو نصر أحمد بن محمد الشجري الذي أخذ عنه: "كتاب المقتصد" في النحو .

وقد عرض الدكتور أحمد البدوي لما تراءى من شعره الذي رسم شيئاً من أحواله وعلاقاته ومواقفه

غير المعلنة ولخصها في ما يلي :

. سخطه على عصره وعلى الأيام التي تضع من قدر العلماء وترفع من شأن الجهلاء من خلال قولته المشهورة:

كبر على العلم لا ترمه و مل إلى الجهل ميل هائم
و عش حمارا تعش سعيدا فالسعد في طالع البهائم

و قوله :

هذا زمان ليس فيه سوى النذالة والجهالة
لم يرق فيه صاعد إلا و سُلّمه النذالة

تفرغ للعلم والدين ولقاصديه من أهل العلم ، جمع بين علوم شتى. ففضلا عن ثقافته العربية والدينية بين تفسير ونحو وأدب وشعر له ثقافة فكرية متعددة كاليونانية والفارسية والهندية فتتوعد كتاباته منها في النحو: المغني والمقتصد والتلخيص والعمدة وغيرها ، وله أيضا في التفسير من أهمها : كتاب المفتاح وشرح الفاتحة، شرح الإعجاز الصغير ، الرسالة الشافية في بيان عجز العرب عن تحدي القرآن، ودرج الدرر في التفسير. وله في البلاغة أيضا دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة والتذكرة. كما كتب رحمه الله في الشعر وكان من المعجبين بشعر المتنبي وألف مصنفا في المختار من شعر المتنبي وأبي تمام . ويميل الجرجاني إلى الشعر التعليمي كأبياته التي كتبها عن النظم في كتاب دلائل الإعجاز:

وقد علمنا بأن النظم ليس سوى حكم من النحو نمضي في توحيه

لو نَقَّب الأرض باغ غير ذاك له معنى وصعدّ يعلو في ترقّيه

ما عاد إلا بخسر في تطلبه ولا رأى غير غيٍّ في تبغيه

كانت وفاته رحمه الله سنة (471هـ) ولا يعلم تاريخ وفاته وإنما على وجه الترجيح كانت سنة (400هـ).¹

¹ انظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، اشراف ياسين الأيوبي ، المكتبة المصرية ، بيروت ، 2002ص44-47

كاتب مصري وإن كان أباه لبناني الأصل، وأمه سورية. حفظ القرآن وهو في سن العاشرة من عمره

1 .

ألحقه والده مصطفى بالمدارس الابتدائية حتى نال شهادتها، وعزم على أن يمتد به إلى الدراسة الثانوية، ولكن الحمى أصابته ولم ترحل عنه إلا بعاهة أصمت أذنه فوقفت حجر عثرة في طريق مستقبله التعليمي، ومن هنا عكف الطالب الناشئ على مكتبة أبيه يقرأ منها ما يقرأ مهتديا بفطرته الذاتية إلى ما يرضيه ، وكانت مكتبة القاضي الكبير لا تخرج عن محيط الدين والأدب والتاريخ الإسلامي فأتاحت للناشئ المتطلع أن يدرس كل ما يقع في يده دراسة الدؤوب المثابر، وصادفت هذه الدراسة منه نفسا متطلعة، وقلبا شاعرا، وعقلا نفاذا.

أسرته تضرب بجذورها البعيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولأعضائها افتخار معتز بهذه النسبة الفاروقية سواء في الشام أو مصر، وقد بلغت من المنزلة الرفيعة أدبا وعلما ما أشار إلى بعضه أحمد شوقي حين قال في تكريم شاعر طرابلس الشام (عبد الحميد الرافعي) وابن عم مصطفى صادق، وأميين الرافعي ، وعبد الرحمان :

أعرني النجم أو هبني يراعا يزيد الرافعين ارتقاعا
إذا أسد الثرى شبعت ففعت رأيت شبابهم عفوا جياعا
هموا زادوا القضاء جمال وجه وزادوا غرة الفتيا التماعا

ترعرع الرافعي في عهد سيطر فيه الاحتلال الأوروبي على أكثر بلاد الإسلام فحاول أن يخدع المسلمين عن مثلهم الرائعة بقشور من المدنية الزائفة. وانطلق صنائعه يدعون إلى المذاهب المنحرفة قولاً وعملاً ، ثم يعمدون تحت ستار من البحث المغرض إلى تشويه الحقائق الدينية وإشاعة الأراجيف الشائنة عن أبطال التاريخ الإسلامي، ثم الحط من البيان العربي والفصاحة البليغة تمهيدا للطعن في كتاب الله ذي الإعجاز المبين .

وقد أثر في مطلع حياته أن يكون شاعرا يلتحق بالكوكبة المجلية من تلاميذ البارودي أمثال شوقي وحافظ ومحرم والكاشف و الكاظمي فنظم الشعر الجيد ،وأصدر في الثالثة والعشرين ديوانه الأول،

¹ أنظر عيسى عمراني المعجم الجامع للأعلام وأصحاب الأعلام جسور للنشر والتوزيع الجزائر ط1 س 2008ص203

فكان حديث الأندية، وقد أفردت له جريدة المؤيد صفحتها الأولى لتنتشر مقدمته الأدبية ذات الطابع الجزل الأسر ففاجأت القراء بباحث كاتب ناقد،حتى إن الشيخ إبراهيم اليازجي قد هاله أن يأتي ناشئ

بهذا البيان وعكف على مراجعة الكتب الأدبية ليهتدي إلى أصولها، حتى إذا استيأس أفرد مقالا مقرضا للمقدمة والديوان في صدر (الضياء). "لقد أدّى الرفاعي دوره الضخم في بعث اليقظة الإسلامية وإيقاد الحمية العربية وعلى من يتصدر للحكم عليه ألا يقف عند الكلف الباهت في وجه القمر ليجعله وحده مجال القول ، تاركا أثر هذا الكائن المشرق في هداية المدلج وإضاءة الطريق وجمال الليل وسلام الحياة"¹

ألّف كتابه " تاريخ آداب العرب" لما رصدت الجامعة المصرية مائة جنية لمن يؤلف في أدبيات اللغة العربية، وضربت لذلك أجلا سبعة أشهر فلم يأت أصحابها بطائل، فأمدت الأجل إلى سنتين ورفعت الجائزة إلى مئتين وأتمّ الرفاعي تأليفه قبل حلول الأجل ولم يكن طامعا في الجائزة فلم يتقدم لها بكتابه،²

وكان ثلاثة أجزاء جعل الجزء الثاني منه في " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " فأتى بالجديد في المنهج والجديد في الأدب والتجديد في الدراسة ومع ذلك قال " بيد أني وإن طالوت التعب فيما استطعت من الإتقان والتجويد ... لا أقول أني أتيت منه على آخر الإرادة ولا أزعم أني أوفيت على الغاية من الإفادة فلذلك أمر تتصرم دونه أعمار وللكمال عمر لا يحسب بالسنين ولكن بالأعصار وجهد ما بلغت من همة النفس أن أكون بنجوة من التقصير."³

كان للرفاعي توجه إلى الشعر وقد قرض فيه وأتقن ولكن قويت وجهته إلى الأدب فكتب فيه وأحسن تتمتع في ضلال مؤلفاته وقصصه تقرأ له " من وحي القلم " ثلاث أجزاء من أروع القصص وهو من أحسن مؤلفاته وله في الجمال والحب " رسائل الأحران " وإن كان أسلوبه فيه نوع من الغموض . " والسحاب الأحمر " قيل ألف ذلك لحبه لمي زيادة . تقرأ له "تحت راية القرآن " ردا على طه حسين وتقرأ له ردا على العقاد "على السفود" وغيرها من المؤلفات ليكون عمودا من أعمدة الأدب .

رحل عن ساحة الفكر والأدب سنة 1937م رحمه الله .

¹ انظر محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 ، سنة 1995، ج 1 ص 435 وما بعدها.

² المرجع نفسه، ص 437.

³ الرفاعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ص14.

أمة العرب

1-1 أحوال العرب وأدبهم:

العرب أمة من الأمم السامية نسبة إلى سام بن نوح. و اختلفوا في مهد الساميين فقبل العراق، وقبل جزيرة العرب ، و قيل الحبشة وسكن العرب منهم شبه جزيرتهم.¹

و يقسم المؤرخون " العرب إلى ثلاث طبقات :

بائدة: وهم الذين درست أخبارهم وطمست آثارهم ...ومن أشهر قبائلهم عاد وثمود وطسم وغيرها.

وعاربة: و هم اليمينيون المنتمون إلى يعرب بن قحطان ... و يزعم العرب أنه أصل لسانهم ومصدر بيانهم ..

ثم مستعربة: و هم ولد إسماعيل عليه السلام نزل الحجاز حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد ثم صاهر ملوك جرهم فكان له بنون و أعقاب ظلوا في مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلا عدنان.²

كان عرب الجاهلية فريقين: أهل الحضر ، وكانوا قلة ، وأهل البادية ، وهم الكثرة.

أما الحضر ، فكانوا يعيشون في بيوت مبنية مستقرة ، ويعملون في التجارة وبعض الزراعة والصناعة ، ومن أولئك الحضر سكان مدن الحجاز ، وسكان مدن اليمن ومن أشهر حضر الجاهلية سكان مكة . وهم قريش وأحلافها.

أما أهل البادية أو أهل الوَبَر، فكانت حياتهم حياة ترحال وراء منابت العشب لأنهم يعيشون على ما تنتجه أنعامهم.

قال الرافعي في وصفهم "سكان الفيافي و تربية العراء ينبسطون مع الشمس، و يفيئون مع الظل و يطيرون في مهب الهواء، بل أولاد السماء ما شئت من أنوف حمية و قلوب أبيية و طباع سيالة و أذهان حداد ... حيث أجمعوا على أنه لا ند لهذا الجنس في جميع السلائل البشرية من حيث الصفات التي تتباين فيها أجناس البشر خلقا و خلقا، حتى صرح بعضهم بأن هذه السلالة تسموا عل سائر الأجيال بالنظر إلى هيئة القحف وسعة الدماغ وكثرة تلافيفه وبناء الأعصاب ... فضلا عما هي عليه من ملاحه السحنة وتناسب الأعضاء وحسن التقاطيع ووضوح الملامح وفضلا عما في طباعها من الكرم والأنفة والأريحية وعزة النفس والشجاعة"³

¹ انظر حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، دار الثقافة ، بيروت ، ط 29 ، 1985 ، ص9-10.

² المرجع نفسه ص 11.

³ مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان ، 1974 ، ج 1، ص 44.

والعرب ليس لهم فنا جميلا خاصا بهم وإنما هو فن الكلام فإذا مجد اليوناني تماثيله وبنيانه مجد العربي قصيدته وفي أمثال العرب (جمال المرء في فصاحة لسانه) وإذا اشتهر أهل اليونان بالحكمة وأهل الصين بالصناعة اشتهر العرب بالمنطق. والرجل الكامل عند العرب من اتصف بالفصاحة والرماية والفروسية والعربية بفضل تركيبها يحسن فيها الإعجاز ويكثر الاقتصاد في ذهن السامع.¹ كانت لعرب الجاهلية أخلاق كريمة ، تتم الإسلام مكارمها وأيدها . ولهم أخلاق ذميمة أنكرها الإسلام وعمل على محوها.

فمن أخلاقهم الكريمة : الوفاء والنجدة وحماية المستجير . ومنها الجرأة والشجاعة والعفاف واحترام الجار والكرم . أما عاداتهم الذميمة فكان منها الغزو والنهب والسلب ، و العصبية الجاهلية ، ووأد البنات وشرب الخمر ، و لعب القمار.

وكل ما سجّله التاريخ من عادات العرب وتقاليدهم وأيامهم في حالتي سلمهم وحربهم تجده مدوّناً في أشعارهم ، فإذا أردت أن تعرف خلة أو عادة أو غير ذلك فعليك بالشعر فإنه ديوان العرب فقد كانوا " في البادية رحالة ليس لهم وسائل العمران ما يتيح لهم التبحر في علم أو التبصر في دين ومع ذلك فقد حصلوا من المعارف ما لا بد منه لطرق عيشهم و أساليب حياتهم وكان ذلك عن طريق التجربة والاختيار"².

1-1-1 الحياة السياسية :

العرب من حيث حياتهم السياسية قسمين: قسماً لهم مسحة سياسية ، وهؤلاء كانوا يعيشون في مدن مثل مكة وقسم آخر من العرب لم يكن لهم وضع سياسي ، وإنما كانوا قبائل من البدو الرحّل ، وتخضع كل قبيلة لشيخها الذي يكون عادة فارساً وسيدا يتحلى بالمثل العليا من كرم ، وإقدام ونجدة ، وفصاحة ، وكان لكل قبيلة مقاتلوها ، وشعراؤها ، وخطبائها الذين يلّبون حاجة قبائلهم في السلم والحرب." وهم لا يخضعون لنظام غير نظام القبيلة ولا يعرفون حكومة و لا مملكة في غير الأسرة والعشيرة فكان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخيمة لا مجتمع الأمة والشعب وكان لكل قبيلة رئيس هو شيخها والسيد فيها ...وأفراد القبيلة متضامنون ينصرون أخاهم ظالما كان أو مظلوما وشعور البدوي بارتباطه بقبيلته يحميها وتحميه وهو المسمى بالعصبية وكان سلطان الأب في بيته مطلقا يتصرف

¹ أنظر فيليب حتي ، العرب تاريخ موجز، دار العلم للملايين، ط 5، 1980 ، ص 32.

² حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية ، بيروت، لبنان ، ط 6، ص 15-16.

في أمور أهله على هواه وكانت للمرأة أن تشارك زوجها في أمور الحياة وكانت موضع إجلال في البيت كما كانت تتمتع بحض وافر من الحرية والاستقلال".¹

1-1-2 الحياة الدينية :

كان معظم العرب وثنيين يعبدون الأصنام . ولهم ثلاث آلهة هي مناة آلهة الحظ التي عبدت في مكة ، و"اللات" و كانت تدعى " الربة " و تعبد في الطائف و " العزى " ممثلة الزهرة التي عبدت خصوصا في قريش . ديانتهم بدائية وخالية من الميثولوجيا واللاهوت تركز في أول عهدها على تقديس الحجارة والمغاور والينابيع و الأشجار وكانوا ينحتون لآلهتهم أصناما من الحجارة تسمى أنصبا ، هذا إلى جانب أصنام خاصة يفتنونها في المنازل ، وكان أحدهم ربما صنع له صنماً من التمر أو العجوة فإذا جاع أكله . ومن العرب من عبد الشمس والقمر والنجوم ، ومنهم من عبد النار . وكان إلى جنب هذه الآلهة كلها وفوقها جمعيا اله يعبدونه خالق العالم " الله " كما يعدونه بعيدا عنهم فيلجئون إلى ما هو قريب منهم محسوس من قوى الطبيعة.²

والقليل منهم من يعتقد اليهودية والنصرانية ، لكنهم لم يكونوا على بصيرة بحقائق الدين ، على أن فئة من العقلاء لم تعجبهم سخافات الوثنية فعدلوا عن الأصنام وعبدوا الله على ملة إبراهيم عليه السلام ، وكانوا يسمون الحنفاء ، وقد سجل تاريخ الأدب كثيراً من شعر الحنفاء . ومن هؤلاء الحنفاء: قس بن ساعدة - ورقة بن نوفل - أبو بكر الصديق - كما كان محمد -صلى الله عليه وسلم- يتعبد في الغار على ملة إبراهيم.

1-1-3 ثقافتهم وعلومهم : ومن أهم ثقافتهم وعلومهم ما يلي :

أ - الأدب وفصاحة القول: نبغوا في النثر والشعر وقد تحداهم القرآن الكريم في أخص خصائصهم وهي البلاغة ، فقد فقال تعالى: " وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " ³ .

ب- الطب : فقد تداووا بالأعشاب والكيّ وربما أدخلوا العرافة والشعوذة في طبهم ، وقد أبطل الإسلام طب العرافة والشعوذة وأقرّ الدواء .

¹ المرجع السابق ص 15.

² انظر المرجع نفسه ص 16-17.

³ سورة البقرة، الآية 23.

ج- القيافة : وهي إما قيافة أثر أو قيافة بشر . فبالأولى كانوا يستدلون بوقع القدم على صاحبها، وبالتالي يعرفون نسب الرجل من صورة وجهه، وكانوا يستغلونها في حوادث الثأر و الانتقام.

د- علم الأنساب: وكان بمثابة علم التاريخ ، فقد كانت كل قبيلة تعرف نسبها وأنساب غيرها ، وتعرف الأيام والمعارك التي دارت بين العرب.

هـ- الكهانة والعرافة: وهذا العلمان أبطلهما الإسلام وتوعدّ من يأتي كاهناً أو عرافاً لأنهما يدعيان العلم بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

و- النجوم والرياح والأنواء والسحب: حيث كانوا يستعينون بها لمعرفة مواقعهم في السفر وتحديد الطرق ، ومعرفة موعد سقوط المطر وأوقات الزرع ، وتحديد موعد الرحيل. وقد أنكر الإسلام التنجيم، وهو ادعاء علم الغيب بطريق النجوم " فكان لهم إمام بالحساب والطب والبيطرة... وكان لهم معرفة بما يعينهم في بواديه المفقرة ومجاهلهم المظلة ومما تصلح بهم أنفسهم وأنعامهم من استطلاع خفايا الجو وألما بعلم النجوم واشتهروا بمعرفة الأنساب والأخبار ووصف الأرض والفراسة والعيافة والقيافة والكهانة والعرافة وجزر الطير وغير ذلك ¹.

"وجملة القول أن المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككا من الجهات السياسية والاقتصادية واللغوية مرتبنا من الجهات الخلقية والعقلية والأدبية ولو صاغ لنا أن نحكم علي العرب بمقتضي لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوسا كبيرة وأذهانا بصيرة وحنكة خبيرة ومعارف واسعة كونوا أكثرها من نتاج قرائحهم وثمار تجاريمهم" ².

1- 1- 4 الحياة الأدبية :

أولا : النثر:

هو كلام اختيرت ألفاظه وانتقيت تراكيبه وأحسنّت صياغة عباراته بحيث يؤثر في المستمع عن طريق جودة صنّعه. فهو يختلف عن الكلام العادي الذي يتكلم به الناس في شؤونهم العادية. وهو أسبق أنواع الكلام في الوجود لقرب تناوله وعدم تقيده...وقد كان العرب ينطقون به معربا غير ملحون لقوة السليقة ³.

إن النثر يقوم على التفكير و المنطق ولا يعتمد على وزن أو قافية، و لذلك يمكننا أن نقول: (إن الشعر مظهر الوجدان والنثر مظهر العقل والثقافة).

¹ حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ،ص 16، وانظر الزيات ص14- 15.

² حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي، ص 15.

³ انظر المرجع نفسه، ص 25.

أ- أسباب قلة النثر الجاهلي :

إن ما روي من النثر الجاهلي قليل بالنسبة لما روي من الشعر وذلك للأسباب الآتية:

- سهولة حفظ الشعر لما فيه من إيقاع موسيقي.

- الاهتمام بنبوغ شاعر في القبيلة يدافع عنها ويفخر بها.

- لم يكن العرب يدونوا آثارهم الأدبية لتقشي الأمية بينهم واعتمادهم على الحفظ والرواية ، ومع ذلك وصل إلينا من النثر قدر يكفي لاستتباط خصائصه الفنية.

ب - أنواع النثر الجاهلي :

• الخطابة و الوصايا.

• الأمثال .

• الحكم .

ج - خصائص النثر الجاهلي : يمتاز النثر الجاهلي بـ :

بجريانه مع الطبع فليس فيه تكلف ولا زخرف ولا غلو، ويسير مع أخلاق البدوي وبيئته فهو جزيل

اللفظ ، قوي التركيب ، قصير الجمل ، موجز الأسلوب ، سطحي الفكر.¹

ثانيا : الشعر:

ديوان العرب وسجل وقائعهم ومجدهم وتاريخهم وشاهد أيامهم يرسلونه على البديهة وربما ارتجلوا

الأبيات الطويلة فهم " أشعر الساميين فطرة وأبلغهم على الشعر مقدرة لاتساع لغتهم للقول وملاءمة

بيئتهم للخيال وصفاء قريحتهم ...وهم فوق ذلك ذوو نفوس شاعرة وطباع نائرة يستفزهم الرغبة

والرهب ويزدهيهم الطرب والغضب فلم يتركوا شيئا يجول في النفس أو يقع تحت الحس إلا

نظموه...حتى روي عنهم من الشعر الوجداني ما لم يرو عن أمة من أمم الأرض مثله . فلا بدع إذا

كان الشاعر يغويهم ويرشدهم والبيت الواحد يقيمهم ويقعدهم.² ولا عجب أن يعلقوا على الكعبة ما

اشتهر وجاد عن بعض شعرائهم وسموها بالمعلقات.

تعريف المعلقات :

¹ حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص 26.

² المرجع نفسه، ص 38-39.

المعلقات لغةً : من العلق وهو المال الذي يكرم عليك، ترضن به، تقول: هذا علق مضنّة. وما عليه علة إذا لم يكن عليه ثياب فيها خير، والعلق هو النفيس من كل شيء، وفي حديث حذيفة: «فما بال هؤلاء الذين يسرقون أعلقتنا» أي نفائس أموالنا . والعلق هو كل ما علق.

وأما **المعنى الاصطلاحي** فالمعلقات : قصائد جاهليّة بلغ عددها السبع أو العشر -على قول- برزت فيها خصائص الشعر الجاهلي بوضوح ، حتى عدت أفضل ما بلغنا عن الجاهليين من آثار أدبية. والمعلقات السبع هي:

- ✓ معلقة امرؤ القيس .
- ✓ معلقة زهير بن أبي سلمى.
- ✓ معلقة طرفة بن العبد.
- ✓ معلقة عمرو بن كلثوم.
- ✓ معلقة عنتر بن شداد العبسي.
- ✓ معلقة لبيد بن أبي ربيعة العامري.
- ✓ معلقة الحارث بن حلزة الشكري¹

د- خصائص الأمثال و الحكم :

تمتاز الأمثال بالإيجاز وجمال الصياغة، وقوة التأثير، ولا يلتزم أن يكون المثل صحيح المعنى ، فقد يشتهر مثل لا يصح معناه في كل وقت، ولكن صادم طرفاً شهيراً فاشتهر به، ولما كانت الأمثال نتاج الناس جميعاً فقد جمعت الصحيح وغير الصحيح، ولا كذلك الحكمة، فإن الحكمة وليدة عقل متميز ذي ارتفاع فلا بدّ أن تكون صادقة في كل الأحوال.

نموذج من الخطابة :

من خطبة لقس بن ساعده الأيادي أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها ، وكان يحكم بين التخاصمين ، وكان يؤمن بالله ويدعو إليه بالحكمة واللين الأناة قيل أنه أول من اتكأ على السيف وبدأ ب : أما بعد .

سمعه النبي صلى الله عليه وسلم في سوق عكاظ فأثنى عليه. (توفي حوالي 600 م) قال : أيها الناس اسمعوا وعوا ،إنه من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم تزهو وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مدحاة وأنهار مجرأة . إن في السماء

¹ انظر المرجع السابق ، ص 42.

لخبرنا وإن في الأرض لعبرا ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ يا معشر إياد أين الآباء والأجداد وأين الفراعنة الشداد ؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا وآجالا ؟ طحنهم الدهر بكلكله ومزقهم بتطاوله¹"

نماذج من الأمثال :

- جزاءه جزاء سنمار . يضرب لمن يحسن في عمله فيكافأ بالإساءة إليه.
- رجع بخفي حنين . يضرب هذا المثل في الرجوع بالخيبة والفشل.
- إنك لا تجني من الشوك العنب . يضرب لمن يرجو المعروف في غير أهله أو لمن يعمل الشر وينتظر من ورائه الخير .

نماذج من الحكم :

- مصارع الرجال تحت بروق الطمع . فيها دعوة إلى القناعة فأن الطمع يقتل صاحبه .
- رب ملوم لا ذنب له . دعوة إلى التحقق من الأمر قبل توجيه اللوم للبريء.
- أدب المرء خير من ذهبه . معناه أن قيمة الإنسان بأدبه لا بماله.
- من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء . معناها (من استعان بقوم غير صالحين لم يفلح في عمله ويكون مثله كمثل من يقف الماء في حلقة ، فلا يجد سبيلا إلي إزالة غصته).فهي تدعو إلى حسن اختيار الأعوان.

نماذج من الأمثال :

- ◆ إنك لا تجني من الشوك العنب.
- ◆ إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا.
- ◆ عقل المرأة في جمالها وجمال الرجل في عقله.
- ◆ الكلب كلب ولو طوقته ذهباً.
- ◆ الحر حر وإن مسه الضر والعبد عبد وإن ملك الدر.²

1-2 البلاغة عند العرب وتحدي القرآن.

كل نبي يأتي إلى قومه بالمعجزة التي تناسب ما أبدعوا فيه وتميزوا به عن غيرهم ليحصل بذلك التحدي . والإعجاز وإذا نظرنا إلى حالة العرب فلم يكونوا يحفلون أو يتأثرون بغيرهم فقد كانوا متاخمين لأراضي مصر وحضارتهم واحتكوا بالفرس وقد سمعوا عن قصور الأكاسرة ولم ينبغوا في الطب، مع أنهم كانوا يعالجون مرضاهم بما تيسر لهم من سبل التطبيب وما عرف عن بعضهم بما

¹ المرجع السابق، ص 28..

² انظر المرجع نفسه ، ص 31-32-33.

يحسن من علاج ، وربما فاقهم غيرهم فلم يأبهوا لذلك . انتشر فيهم السحر و الكهانة وشاركهم فيها غيرهم إلا أن العرب أوتوا من الفصاحة والبلاغة فكان الناس عنهم يصدرون وإليهم يرجعون وبلغوا في ذلك شأوا بعيدا ومبلغا يعجز أن يجاريهم فيه غيرهم حتى كانت تقام أسواق يتباري فيها الشعراء والخطباء " كانوا يقيمونها في أشهر السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض فكانوا ينزلون دومة الجندل أو يوم من شهر ربيع الأول ثم ينتقلون إلى هجر بالبحرين... ثم يرتحلون إلى عمان فتقوم بها سوقهم إلى أواخر جمادي الأولى ثم ينزلون "المشقر" ثم سوق "صحار" فيقيمونها خمسة أيام وتقوم سوقهم "بالشحر" بين عدن ثم ينزلون عدن أبين وهي جزيرة في اليمن ثم حضرموت ومنهم من ينزل صنعاء ولهم أسواق كذي المجاز ومجنة تقام قرب موسم الحج يؤمها كثير من قبائلهم وأسواق غيرها، ذكر الجاحظ عدة منها في كتاب الحيوان¹. فكل هذه الأسواق كان العرب يتنافسون فيها في الخطابة والشعر وتشهدها "القبائل كلها إذ كان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته إلا عكاظ فإنهم يتوافدون إليها من كل جهة . وهم كانوا لذلك العهد يتعلقون بالكلمة السائرة والخبر المرسل لا يعدلون بذلك شيئا لما ركب في طباعهم من الفخر وحب المحمدة وما انصرفوا إليه من المباهاة و بالفصاحة وقوة العارضة وقرب ما بين اللسان والقلب ... و في هذه السوق كان يخطب الشاعر الفحل بقصيدته والخطيب المصقع بكلمته ... وفيها ضربت للنابغة الذبياني قبة من آدم ليتحاكم إليه من الشعراء في أيهم أشعر."² ولا أدل على ذلك ما جري بين الخنساء وحسان واحتكامهما للنابغة وفي هذه السوق " فلما أنشد حسان أمام الخنساء قوله :

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحى و أسيافنا يقطن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء و ابن محرق فأكرم بنا خالا و أكرم بنا ابنا

فقال الخنساء ضعفت افتخارك و أبرزته في ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟ قالت: قلت : لنا الجففات والجففات دون العشر فقللت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر وقلت : الغر والغرة البياض في الجبهة ولو قلت البيض لكان أكثر اتساعا وقلت يلمعن واللمع الشيء يأتي بعد الشيء و لو قلت يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان . وقلت بالضحى ولو قلت بالعشية لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طرقا. وقللت أسيافنا والأسياف دون العشر ولو قلت سيوفنا كان أكثر. وقلت يقطن فدلت على قلة القتل ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم . وقلت دما والدماء أكثر من الدم وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك ."³

¹ أنظر الراجعي، تاريخ آداب العرب، ج 1 ، ص 95.

² المرجع نفسه، ص 96.

³ المرجع نفسه، ج 2 ، ص 225.

كان الكلام فيها بلغة يفهمها الجميع يتوخى الشاعر أو الخطيب الألفاظ العامة والأساليب العالية في لغة مثالية موحدة تروق كل سامع ولا ينفر منها أو يستغربها أحد فكان من ثم للأسواق أثر بليغ في توحيد اللسان وتعميم اللغة المثالية وتغليب لغة قريش على سائر اللغات لأنها أشهر الأسواق في بلادهم.¹

يقول الرافعي "وقد كان من عادتهم أن يتحدى بعضهم بعضا في المسجالة والمقارضة بالقصيد والخطب ثقة منهم بقوة الطبع ولأن ذلك مذهب من مفاخرهم يستعلون به ويذيع لهم حسن الذكر وعلو الكلمة وهم مجبرون عليه فطرة ولهم فيه المواقف والمقامات في أسواقهم ومجامعهم فتحداهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه وسلك في ذلك طريقا كأنها قضية من قضايا المنطق التاريخي فإن حكمة هذا التحدي وذكره في القرآن إنما هي أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللد والفصحاء اللسن وهم كانوا في العهد الذي لم يكن للغتهم خير منه ولا خير منهم في الطبع والقوة فكانوا منة المعارضة والقدرة عليها حتى لا يجيء بعد ذلك في ما يجيء ... فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله وأنه غير معجز وأن عسى أن لا يعجز عنه إلا الضعيف وبالله من سمو هذه الحكمة وبراعة هذه السياسة التاريخية لأهل الدهر."² فالمولى عز وجل يواجه كل قوم بما حذقوه وبرعوا فيه فمعجزات الأنبياء ترتبط بما يعرفه القوم عادة فعيسى عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله في قوم برعوا في الطب وموسى عليه السلام تتقلب عصاه حية مع قوم برعوا في السحر ومحمد صلى الله عليه وسلم مع قوم برعوا في الفصاحة والبلاغة وأفانين الكلام فأمية موسى بالسحر كأمية الرسول صلي الله عليه وسلم بالقراءة والكتابة وهذا ما يجعل هذا الكتاب معجزا أبد الدهر قال محمد علي الصابوني " فمثل هذا البيان الرائع والجرس العذب يسري في النفس سريان الروح في الجسد واقسم بالله أنني أشعر بهزة نفسي كلما قرأت القرآن لما له من وقع عذب على السمع وأحيانا أجدني أتمايل طربا بدون شعور أكثر مما يتمايل المغرمون بأنغام وما ذلك إلا لروعة البيان في هذا القرآن وصدق رسول الله -صلى الله عليه و سلم- حين قال " إن من البيان لسحرا "³ و قد أنزل الله كتابه على نبيه صلي الله عليه وسلم ببلاغة فريدة ونظم متميز وأسلوب رفيع ليواجه أمة كالعرب. الكلام حرفتها لهم فيه الكعب العالي لا يجاريهم ولا يدانيهم أحد . فهم الفرسان في المنظوم والمنثور فأدهشهم نظمه العجيب وأسلوبه الغريب فأتوا بما لا قبل لهم به فما قالوا للنبي صلي الله عليه وسلم أنه خطيب فلم تعرف عنه الخطابة ولاستعمل نسج الكهان فزعموا وليتهم ما زعموا أنه

¹ حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 24.

² الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ج 2، ص 169.

³ محمد علي الصابوني ،صفوة التفسير، دار الجميل ، بيروت ط1، 2000، ج3، ص 61.

سحر حتى يجدوا لمكابرتهم ولعجزهم مخرجا فبذلك يترك المرء دينه إلى الدين الجديد وما علم هؤلاء أن السحر إنما هو في البلاغة والفصاحة والبيان . وقد حاول العرب أن يجتمعوا فيه على قول واحد فاختلّفوا فلما جاء موسم الحج قال الوليد ابن المغيرة وكان ذا سن فيهم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا . فقالوا فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به . قال بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزممة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول مجنون قال ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه و هجزه و قريضه و مقبوضه و مبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا فنقول ساحر قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما تقول أنت يا أبا عبد شمس . قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته... فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره . فأنزل الله فيه (ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر سألصليه صقر وما أدراك ما صقر..)¹ . ولا يمكن لأحد أن يعرف مدى تحدى القرآن للعرب إذا لم يكن بصيرا ببلاغة العرب محيطا بفصاحتهم عارفا لأساليبهم " وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب فعرف اللغة وعلم العربية وعلم البيان ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقولاتها في مواطن افتخارها ورسائلها وأراجيزها وأسجاعها فعمل منها تلوين الخطاب ومعدوله وفنون البلاغة وضروب الفصاحة وأجناس التجنيس وبدائع البديع ومحاسن الحكم والأمثال فإذا علم ذلك ونظر في هذا الكتاب العزيز ورأى ما أودعه الله سبحانه وتعالى فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان فقد أوتي العجب العجاب، والقول الفصل اللباب والبلاغة الناصعة التي تحير الألباب وتعلق دونها الأبواب ... ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة والنفوس خشية وتستلذه الأسماع وتميل إليه بالحنين الطباع سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة ²

¹ مختصر سيرة ابن هشام، إعداد محمد عفيف الزعبي ، مراجعة عبد الحميد الأحديب، دار النفائس، ط 2، 1979، بيروت ص 45 وما بعدها.
² ابن القيم الجوزية ، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 8، ص 8.

والقرآن جاء بالحروف التي يعرفونها وبالألفاظ التي يستعملونها فما الذي أعجزهم على أن يأتوا بمثله فلم يكن " مؤلفا من غير حروف لغتهم التي رضعوا لبانها صغارا وارتضوا أنفسهم على أدبها شعرا ونثرا كبارا وقد ذكر الله عجز وجل في مطلع سور من كتبه حروفا مقطعة ... هو ذلك الكتاب المعجز الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا " ¹.

1-3 بيان وجه الإعجاز في النظم :

يتبين مما سبق أن العرب أبدعوا في الكلام وتفننوا في القول من شعر ونثر وأجادوا فيهما وأتوا روعة البيان ودقة التصوير و تنقيح العبارة لذلك يرى الرافعي الإعجاز كان في هذا الباب وأن القرآن تحداهم بما فيه من بلاغة وقوة الأسلوب والفصاحة " لا جرم كانوا أهل هذه اللغة المعجزة التي ناسبتهم بأوضاعها في معاني التركيب حتى كأنها كتب لها أن تكون دين الألسنة الفطري لتصلح بعد ذلك أن تكون لسان دين الفطرة" ² وفي ذلك يقول الجرجاني " إن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ولم يعلم أنها معدنه وموضعه ومكانه وانه لا مستتبط له سواها ، وألا وجه لطلبه فيما عداها غارٌ نفسه بالكاذب من الطمع ومسلم لها من الخدع ³. قال ابن عطية " الصحيح الذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه هو ذلك أن الله أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله فإذا ترتيب اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأول وتبين المعني بعد المعني... من أول القرآن إلى آخره ... بهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة. قال حازم في منهاج البلغاء وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاءها في جميعه استمرار لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحاءها" ⁴ وجهة الإعجاز ليس في الألفاظ المفردة و إلا لكانت المعجزة يمكن أن تحدث قبل نزوله وليس مجرد التأليف والإعراب وإلا كان كلام العرب معجزا و كان الابتداء بأسلوب الشعر معجزا ولا بالصرفة لأنهم تعجبوا من فصاحته وقد حاول البعض كمسيلمة وغيره فأتوا بالمضحكات " والعاجنات عجنا والطاحنات طحنا والخابزات خبزا " أعجز وأخرس البلغاء والفصحاء وهو بلسان العرب ⁵. قال الأصبهاني " فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص

¹ محمد بن سعيد بن رسلان ، فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين، نشر دار العلوم الإسلامية، القاهرة د ط، 1989 ص 8.

² الرافعي تاريخ آداب العرب ، ج 1 ، ص 44.

³ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، المحقق الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد محمود الشنقيطي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ص 403-404 .

⁴ جلال الدين السيوطي ، الإنتقان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ج 2 ، ص 119.

⁵ انظر المرجع السابق، ص 119.

وبيان كون النظم معجزا يتوقف على بيان نظم الكلام ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه" ثم يتحدث عن مراتب التأليف ويجعلها في خمسة مراتب : الأول ضم الحروف لتحصل الكلمات من اسم وفعل وحرف . والثانية ضم هذه الكلمات لتحصل الجمل المفيدة وهو الكلام العادي الذي يتناوله الناس في خطاباتهم والثالثة ضم ذلك إلى بعض ضما له مباد ومقاطع ومداخل ومخارج وهو المنظوم . والرابعة : مراعاة السجع في أواخر الكلام . والخامسة : أن يجعل على وزن فيقال شعرا أو مخاطبة أو مكاتبة أو رسالة والكلام لا يخرج عن هذه الأقسام والقرآن جامع لمحاسن هذه الأنواع كلها لكن على نظم مخالف لها كلها وهو الكلام البليغ يختلف عما عداه مما يتعاطاه البشر .¹

وهناك من رأى أن الإعجاز لا يمكن وصفه حتى و إن أدركنا جهته قال السكاكي في المفتاح " إعلم أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما"² والخطابي يذكر أن أكثر العلماء ذهبوا إلى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها وصغوا فيه إلى حكم الذوق وقسم أجناس الكلام ومراتبها ودرجات متفاوتة فمنها البليغ الرصين الجزل ومنها الفصيح القريب السهل ومنها الجائر المطلق الرسل - بكسر السين - فالأول أعلاها والثاني أوسطها والثالث أدناها وأقربها وقد حوى القرآن هذه المراتب كلها . وتعذر على البشر الإتيان بمثله لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني ولا تدرك الأفهام جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ولا تكمل معرفتهم جميع وجوه المنظوم التي يكون بها الائتلاف والارتباط ببعضها فيختار الأحسن من وجوهها . والكلام يقوم على لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم والقرآن حاز هذه المزايا في غاية الشرف والفضيلة فلا تجد أفصح ولا أفضل ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا ترى نظما أحسن تأليفا وتشاكلا منه . فجاء القرآن معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظام والتأليف مضمنا أحسن المعاني من توحيد الله وتنزيهه في صفاته وأحكامه ووعظه وإرشاده فصار المعاندون يقولون مرة أنه شعر لما رأوه منظوما ومرة أنه سحر لما عجزوا عنه لما له وقع في القلوب وقرع في النفوس ومع ذلك يعترفون أحيانا فقالوا إن عليه لحلاوة وطلاوة وأحيانا يكابرون فيقولون أساطير الأولين.³ وقد كان كفار قريش يستمعون إليه خفية حيث أنه ملك على قلوبهم وأعجبوا ببلاغته فكانوا يأتون سرا ليستمعوا إلى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فقد "خرج ليلة أبو سفيان وأبو

¹ أنظر المرجع نفسه، ص 120.

² المرجع نفسه، ص 120.

³ أنظر المرجع السابق، ج2، ص121.

جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفي ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ (صلى الله عليه وسلم). فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها . وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيت فيما سمعت من محمد؟ (صلى الله عليه وسلم) فقال : ماذا سمعت تتازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطمعوا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . فقام عنه الأخنس و تركه.¹

والقرآن قد خرج عما اعتاده كلام العرب. تميز بأسلوبه وخطابه منها الكلام المنظوم البديع الموزون و المقفى وغير الموزون والمسجع وغيره والقرآن خارج عن هذه الوجوه ليس من قبيل الشعر ولا من باب السجع وهذه الخاصية ترجع إلى حملة القرآن ولم يعرف عند العرب كهذا الكلام المتصف بالفصاحة وتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة الحكم التناصب في البلاغة والتشابه في البراعة وإذا اتصف بها حكيم منهم فإنما هي كلمات معدودة وألفاظ قليلة فكلام الآدمي يختلف ويتفاوت ويحسن في موضع ويختل في موضع ويعتريه الاختلاف والتناقض بينما كلام الله تجد عجب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين مع اختلاف أغراضه من وعد و وعيد وإعذار و تبشير وتعليم وسير والشاعر قد ينبغ في الفخر ولا يوجد في المدح وآخر يبرز في الهجاء دون الوصف أو الغزل فيظهر الاضطراب والاختلاف في الشعر. و قد يحسن النظم ولا يحسن في الكلام المرسل فإذا تأملت نظم القرآن وجدته على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف لا تفاوت ولا انحطاط عن المنزلة العليا وحتى في الآيات الطويلة والقصيرة غير مختلف بل في غاية

¹ مختصر سيرة ابن هشام ، ص 54-55

البراعة وكلام الفصحاء يتفاوت في الوصل والفصل والعلو والنزول وغير ذلك من أقسام الخطاب فترى الشاعر مثلا يوصف بالنقص عند التنقل من معنى لآخر وقد يحسن في موضع ولا يحسن في آخر لكن يتبين لك في القرآن من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف و المتباين كالمتناسب وغيره وهذا أمر عجيب تتبين فيه الفصاحة حد العادة والعرف ونظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس والجن " قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا"¹ كذلك نجد في خطاب العرب ما يحتوي البسط والاقتصار والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح والتجوز والتحقيق ونحو ذلك وهي توجد في القرآن مما يجاوز حدود كلامهم كذلك تجد في الألفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضا في اللطف و البراعة المناسبة للمعاني فتجد الألفاظ موافقة للمعاني والمعاني وفقها لا يفضل أحدهما علي الآخر. تجد الكلمة في الجملة كالدرة في واسطة العقد. ثم إن هذا القرآن مكون من حروف هي نفسها التي بني عليها كلام العرب فنظم على الحروف التي ينظمون بها كلامهم فجاءهم من هذا السبيل.² ويرى الرافعي أن الإعجاز أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية والأثر الإلهي في الألفاظ كأنما أفرغ إ فراغا ويعجز الإنسان إلى أن يصل إلى اكتشاف أسرار الإعجاز التي هي فوق تصور البشر والبحث عن حقيقة الإعجاز لا ينبغي أن يحصر في وجه بعينه كما فعل بعض السابقين كأن حصره في الصرفة كما قال بذلك النظام أو الفصاحة كما قال بها الرماني أو في النظم كما هي عند الجرجاني فيرى أن الإعجاز يشمل نواحي كثيرة ولكنه قصده في كتابه الإعجاز هو من حيث التأليف ومن حيث هو كلام عربي " فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب ومعجز في أثره الإنساني ومعجز كذلك في حقائقه وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء فهي باقية ما بقيت وقد اشرنا إليها ... على أنها ليست من غرضنا في هذا الباب وإنما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي"³ وهو بذلك يرى أن مادة الإعجاز في كلام العرب كله وإلى نظمه الذي لا يرقى إليه عقل بشري وهذا النظم في رأيه يكون في الحروف والكلمات والجمال . وهذا ما ذهب إليه أحمد أحمد بدوي إلى أن الإعجاز كان في النظم ولم يكن كما زعم البعض أنه في نظمه حكاية عن كلام الله القديم لأنه لو كان كذلك لكان الإعجاز في التوراة والإنجيل وما قال بذلك أحد وما قيل أنه بما يتضمنه من أخبار الغيب وإخبارهم أن الروم ستغلب في بضع سنين أو أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه أنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فدخلوا أو أنه كان معلوما

¹ الإسراء الآية 88.

² انظر الرافعي تاريخ آداب العرب، ص 166 و ما بعدها.

³ المرجع نفسه ، ص 156 -157.

من حاله صلى الله عليه وسلم أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولا يعرف شيئا عن قصص الأقدمين إلا أن التنبؤ بالغيب والحديث عن الماضي لم يصلحا برهانا أن القرآن ليس كله قصص وأخبار وتنبؤ فقد وقع الإعجاز بأقصر سورة منه وهي لا تحمل قصصا ولا تنبؤ عن أخبار وما قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم أنك تعرف من أخبار الماضين والأمم السابقين ما لا نعرف و لافتروا أخبارا عن الأمم السابقة وقد قال لهم " قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات."¹ كذلك قول من ذهب إلى أن القرآن خال من التناقض وذلك غير مقبول أيضا لأن الإجماع منعقد على أن التحدي واقع بكل سورة وقد يوجد في الشعر وكلام العرب ما يخلو من التناقض . أما الوجه الذي نرتضيه لإعجاز القرآن في نظمه البديع وتأليفه العجيب .²

وهو ما قال به قال يحيى بن حمزة العلوي " وهو أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه ."³ وقد أشار الجرجاني في رسالته الشافية فالقرآن: أولا: تحدى العرب أن يأتوا بمثله .

ثانيا : كانوا على درجة من الفصاحة اللغوية.

ثالثا: أدركوا أن لغة القرآن لا تدانيها لغة وتعلو على كل اللغات .

رابعا : صح أنهم كانوا حريصين على تحدي القرآن وإثبات أنهم لا يستطيعون أن يجاروه في البلاغة والفصاحة .

خامسا : أنهم رغم حرصهم على التحدي وعنادهم عجزوا عن ذلك لذا وجب القطع بأن القرآن معجز في نظمه.⁴

ويفصل الباقلاني فيما بعد هذه الوجوه وكان أكثر تفصيلا في الوجه الثالث أن القرآن بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة بل إن كتابه يكاد يكون مبنيا على هذا الوجه ولقد ذكر معاني عشرة يشرح بها هذا الوجه فيقول."أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه ."⁵

فأولها: ما يرجع إلى جملة القرآن ببيان ذلك أن كلام العرب يدور بين الشعر والرجز والسجع والنثر المرسل وبين كلام "موزون مقفى" وكلام موزون غير مقفى "وكلام غير موزون وحينما ننظر في

¹ هود الآية 13.

² انظر أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، الإدارة العامة للنشر، 21ش احمد عراي ، الجيزة ،ص.ب إمبابة ، 2005 ص 46-47.

³ يحيى بن حمزة العلوي، الطراز، مطبعة القطف، مصر ، 1914 ج3،ص38.

⁴ سمير أبو زيد، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني..ص9

⁵ أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ج 1 ، ص54.

القرآن الكريم نجده جاء على طريقة مغايرة لكل ما عرفه القوم الباقلاني والمقصود عند الباقلاني بالقالب والقالب والشكل وجه من وجوه الإعجاز .

ثانيا: القضية البلاغية في القرآن من حيث أسلوبه وألفاظه وكونه نسقا واحدا ليس في كلام العرب مثل هذه الفصاحة والبراعة وهذا المعني يرجع إلى أن القرآن نسقا واحدا في البلاغة ليس بين آياته تفاوت واختلاف وهذا هو ما ذهب إليه أكثر العلماء فالقرآن على طوله متساو في الفصاحة والبلاغة وهذا ما لا نجده في كلام الفصحاء والبلغاء فإذا أخذنا ديوان شعر لأكثر الشعراء إتقانا فسوف نجد قصائده متفاوتة من حيث بلاغتها فقد يجود الشاعر في قصيدتين أو ثلاث وكذلك إذا أخذنا القصيدة الواحدة فلن نجد أبياتها سواء وإنما نجد بيتا أو اثنين أو ثلاثة هي في القصيدة واسطة عقدها ودرة حلقتها وقل ذلك في النثر لكن القرآن أوله وآخره سواء في بديع النظم وعلو الأسلوب.

ثالثا: عجيب نظمه لا يتفاوت ولا يتباين : موضوعات القرآن جميعها على ما بينها من اختلاف لا نستطيع القول إن بعضها أفصح من بعض فكما أن آيات القرآن لا تتفاوت فكذلك موضوعاته وهذا أمر لم يعرفه العرب فالشاعر لا يستطيع أن يجود في موضوعاته وهذا أمر لم يعرفه العرب فالشاعر لا يستطيع أن يجود في موضوعات متعددة قد يجود أحدهم في المدح وآخر في الهجاء وثالث في الغزل والنسيب وآخر في الحكمة وقد يجود أحدهم إذا خاف ورهب وآخر إذا انتشى وطرب. فقالوا أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب وزهير إذا رغب والنابعة إذا رهب والأعشى إذا طرب.

والقرآن الكريم ليس كذلك فعلى الرغم من كثرة موضوعاته فهي في رفعة شأنها سواء من جهة أخرى فعلى الرغم من الأحوال المتعددة التي كان عليها سيدنا رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو ينزل عليه الوحي فإن ذلك لم يغير من أسلوب القرآن شيئا.

وهذا الوجه الثالث يختلف بالطبع عن سابقه فقوم هذا الوجه أن القرآن الكريم على تعدد موضوعاته إلا أنه في أعلى درجات البلاغة والذي عرف عن الشعراء والكتاب غير ذلك فكما أن الشعراء يجود كل في موضوع فإن الذين يتعاطون النثر كذلك يجود أحدهم في الخطبة وثان في القصة وثالث في المقال. "فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العلمين وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم الآدميين وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبلوغ والخطيب والخطيب والشاعر والشاعر وبين نظم القرآن جملة".¹ أما الوجه الثاني فقوامه أن القرآن على طوله هو في الصنعة البلاغية سواء ولا كذلك الشعر والنثر. "إننا لم نجد أحدا بلغ الحد الذي وصفتهم في العادة وهذا الناس وأهل البلاغة

¹ المرجع السابق، ج 2، ص 3.

وأشعارهم عندنا محفوظة وخطبهم منقولة ورسائلهم مأثورة وبلاغاتهم مروية وحكمهم مشهورة وكذلك أهل الكهانة والبلاغة... وغيرهم كلامهم معروف عندنا وموضوع بين أيدينا لا يخفى علينا في الجملة بلاغة بليغ ولا خطابة خطيب ولا براعة شاعر مفلق ولا كتابة كاتب مدقق فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يداني القرآن في البلاغة أو يشاكله في الإعجاز مع ما وقع من التحدي إليه المدة الطويلة¹

الرابع: كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بينا في الفصل والوصل والعلو والنزول أما القرآن الكريم فمع كثرة موضوعاته التي هي نسق واحد فإن هناك وجه آخر يدل على إعجازه وهو ما فيه من جودة وإحكام الرصف ذلك أن أي بليغ حين يتكلم في موضوع ويريد الانتقال إلي غيره يشعر أن هناك عجزاً في الانتقال فمن تكلم في الشعر عن الغزل مثلاً يصعب عليه الانتقال إلي المدح وقليل هم الذين لا يشعروننا بالنقلة والتكلف ولهذا عيب على البحتري مع جودة شعره - ورقة طبعه - عدم تجويده في الانتقال من النسب إلى المديح. "وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يبين عاداتهم من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن وهذا في البلغاء منهم دون المتأخرين في الصنعة"²

ولكن القرآن يجمع بين المختلف فيجعله مؤتلفاً وينقلنا من الموضوع الواحد إلى الآخر دون الشعور بهذا الانتقال خذ سورة العلق فإنه لا يخطر في بالك عند قراءتها أنها نزلت مفارقة وذلك لما تجده بين آياتها من إحكام السبك وجودة الرصف والربط مع أن الآيات الخمس الأولى هي التي نزلت أولاً ونزل القسم الآخر بعد سنين كذلك سورة البقرة التي نزلت في عشر سنين ومع ذلك نجدها من أول آية مترابطة متناسقة .

الخامس: أن نظم القرآن وقع موقعا من البلاغة يخرج عن عادة الجن فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)³

السادس : كلام العرب فيه من فنون القول والإطناب والاستعارة والتشبيه وغيرها من الأساليب المتعددة كالتبكيث والوعظ والوعد والوعيد وحينما ننظر في القرآن نجد فيه هذه الأساليب لكن على وجه لم يستطعه العرب فالقرآن تارة يعبر بالإيجاز وتارة بالإطناب وتارة بالاستعارة وأخرى بالحقيقة ولكن لكل أسلوب ما يناسبه ويتلاءم معه.

¹ المرجع نفسه ، ج2، ص 186-187.

² المرجع نفسه ، ج2، ص189.

³ الإسراء الآية 88.

السابع: وهو يتعلق بمعاني القرآن فالمعاني التي جاء بها القرآن لا يستطيع أحد من الناس الإتيان بها ويعني الباقلاني بالمعاني هنا الموضوعات التي عرض لها القرآن الكريم وهي الموضوعات الفكرية سواء كانت تلك الموضوعات تشريعية أم عقديّة وسواء كانت حجاجاً ورد شبهات أم حديثاً عن مبدأ خلقي وقضية تربوية وهذه المعاني القرآنية مبتكرة لأن كثيراً من موضوعات القرآن كانت بكرة لم تكن مما عرف الناس من قبل لا في الكتب السماوية ولا في نظريات الفلاسفة ولا في التشريعات القانونية .

يقول الباقلاني " واختيار اللفظ لمعني متداول معروف بين الناس أمر سهل ميسر لكن الأمر الذي فيه صعوبة ودقة وعسر على كثير من الناس هو اختيار الألفاظ لمعان جديدة غير معروفة ولا مألوفة وكذلك القرآن الكريم فمعانيه جديدة اختيرت لها ألفاظ بارعة ."¹ وهي لفظة من الباقلاني تستحق التقدير فاللفظ والمعنى في كتاب الله كلاهما فيه جدة وليس ذلك بمتيسر للكثير من الناس فالبراعة في اللفظ من شأن الأدباء والجدة في المعنى من شأن رجال التشريع والفلسفة والأخلاق .

الثامن: الناظر في كلام الناس لا يجده سواء فرماً وجدنا في الجملة أو الفقرة أو الأبيات من الشعر كلمة رائعة رائقة تتوجه إليها الأنظار والأذان وتجتلب الأذهان أكثر من غيرها هذه الكلمة إنما هي درة العقد في الجملة أو الفقرة أو القصيدة لكن القرآن الكريم ليس كذلك بل كل كلمة منه إذا وضعت مع غيرها تجدها درة عقد وحلاوة شهد. فإذا وضعت الكلمة القرآنية في كلام كانت هذه الكلمة منادية على نفسها بالروعة ممتازة على غيرها.

التاسع: هذه الأحرف المقطعة في فواتح السور التي نجدها في ثمان وعشرين سورة ومجموع هذه الحروف أربعة عشر حرفاً وهي نصف الحروف الهجائية ولكن لكل حرف صفات خاصة به وصفات الحروف كثيرة ذكر علماء التجويد منها سبع عشرة صفة فإذا نظرت إلى الحروف المفتحة بها السور القرآنية وجدت أنها اشتملت على جميع الصفات.

خذ الحروف المهموسة مثلاً وهي مجتمعة في قولهم (فحثة شخص سكت) تجد أنه قد ذكر نصف هذه الأحرف في فواتح السور وهي الحاء والسين والصاد والكاف والهاء وضد الهمس والجهر وستجد حروفها كذلك ذكرت في فواتح السور وكذلك الشدة والرخاوة والذلاقة والقلقلة فليست هناك مجموعة ذات صفة واحدة إلا وذكر نصفها في فواتح السور فاكتفي بما ذكر عن غيره وهذا ترتيب بديع يدل على الإحكام.

¹ المرجع السابق، ص42.

العاشر: أن القرآن مع ماله من بلاغة إلا أنه سهل ميسر قريب ليس بالغريب الصعب وليس فيه كلام وحشي مستكره وليس فيه ما يصعب على النطق أو ما تتفر منه النفس وتمجه فالقرآن كله سهل ممتنع سبيله ميسر وصعبه مفسر وهكذا القرآن نقرؤه ولا نشعر أنه بحاجة إلى التفسير.¹

وقد رد الباقلاني على قول النظام القائل بأن الإعجاز واقع بالصرفة أي أن الله صرف العرب عن مجاراته والمحاولة في أن يأتوا بمثله يقول الباقلاني: ليس كما قال النظام "إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام إنما لم يعارضوه لأن الله صرفهم عن ذلك وهذا المذهب المعروف بمذهب الصرفة وهو مذهب باطل لوجوه:

أولها: أنه لو لم يكن معجزا لما فيه من ألوان البلاغة وفنون البيان لكان إذا أنزل في درجة البلاغة وانحط في مرتبة الفصاحة أبلغ في الأعجوبة إذا صرفوا عن الإتيان بمثله ولما عني أن يكون هذا النظام العجيب أن يظهر بالفصاحة بأوفى نصيب .

ثانيها: أنهم لو كانوا قد صرفوا عن معارضته لم يكن من قبلهم من العرب مصروفين عنه لأنهم لم يتحدوا به فكان من الجائز أن نعثر في كل العرب الأقدمين على ما يشبه القرآن وذلك ما لم نجده في تاريخ أدبهم .

ثالثها: أنه لو كانت المعارضة ممكنة و لكنهم منعوا منها بالصرفة، لم يكن الكلام معجزا، إنما يكون المنع معجزا، فلا يتضمن الكلام في نفسه فضيلة على غيره، فيصبح في مكنة العظماء والبلغاء بعد زمن التحدي أن يأتوا بمثله و لكن شيئا من ذلك لم يكن فقد أتى جهابذة الكلام بعده بما في وسعهم أن يأتوا... وكلما اهتموا إلى سر من أسرار الفصاحة ازدادوا إيماننا بالضعف والعجز أمام كتاب الله .

رابعها: لو كان عجز العرب عن المعارضة بالصرفة لما استعظموا بلاغة القرآن وتعجبوا من حسن فصاحته كما اثر عن الوليد بن المغيرة إن له لطلاوة وإن عليه لحلاوة² .

1- 4 نشأة النظم وتطوره :

لم يظهر مصطلح النظم في العصر الجاهلي بحكم أن العرب كانوا سلقين وفصحاء وكانت اللغة العالية هي السائدة فيها استعاروا أبدعوا وكان النظم عندهم يظهر في تمييز الشاعر عن الآخر في إجادة البيان في قصيدة باستعمال آليات التشبيه والمجاز والبيدع في الوقت الذي كانت الأحكام لا تستند إلى منهجية ، كما لم تكن الأحكام النقدية ظاهرة ... كان نقدهم يدور في القافية ومراعاة مقتضى الحال واستهلال القصيدة وانصرفوا عن الألفاظ المخيرة والمعاني المنتخبة والسبك الجيد

¹ فضل حسن عباس ، د:سناء فضل عباس ، انظر إعجاز القرآن الكريم ، دار النفائس ، عمان الأردن، ط 7، 2009، ص 51 وما بعدها.

² أحمد أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، ص 45-46.

والكلام الذي له رونق وكانت الفصاحة اللغوية هي الحكم الأول دون النظر في سهولة الكلمات وصعوبة البيت .

أما في صدارة الإسلام فقد أثر القرآن بنظمه وتألفه العجيب في ترشيد الذوق البلاغي كونه تحداهم فأتوا بصورة من مثله ... تحداهم بكلام من عندهم ووفق أساليب لم يألفوه ولا يستطيعون الإتيان بمثلها مهما أوتوا من صفوة القول وحسن الكلام فكانت بعض مجالس الأدب أو السمر وحلقات الخلفاء موضع تدارس الإعجاز القرآني والإتيان بأجود الأشعار وهنا بدأ الاهتمام بصناعة الكلام فكان التركيز في كل ذلك على صيغة مخارج الحروف وائتلافها. سلامة اللغة وعلاقة الألفاظ ببعضها وسلامة الجمل والعلاقة بين اللفظ والمعنى وما يحمله من جمال، ولما جاء العصر العباسي الأول اشتد اختلاط العرب بالأجانب وتوسعت الدولة العربية أخذ الذوق العربي ينحرف ويفشو اللحن وهنا بدأت البلاغة تنقص فقام أولو الأمر بوضع تدابير المحافظة على سلامة الذوق العربي فكان القرآن وكلام العرب من الشعر يرجع إليها للتفنين اللغوي وذلك ما شجع البحث والتأليف في القرآن والشعر والنثر والحديث وانصرفت الدراسات بعد ذلك في وجوه البيان.¹

وإذا ذكر النظم يذكر معه عبد القاهر الجرجاني ونستطيع القول أن فكرة النظم تبلورت ووضحت معالمها وصارت نظرية بالمصطلح الحديث مع الجرجاني. ونستطيع القول أيضا أن الجرجاني أتى بمفهوم النظم ليوفق بين قولين مختلفين ويقضي على ثنائية النزاع هل المزية والأفضلية للفظ أم المعنى وقد ظلت دهرا تمثل فريقين ينتصر كل منهما لأحد القولين " وهكذا عمل الجرجاني على حل مشكلة اللفظ والمعنى من خلال انتصاره إلى النظم وفق طرائق النحو ويجسد مبادئ محدودة لنظرية النظم التي عرفت فيما بعد باسمه وهذه هي أركانها العامة :

1 - النظم هو التأليف وسبيل التصوير والصيغة .

2 - النظم ليس في اللفظة المفردة .

3 - النظم ليس في اللفظ أو المعنى يستقل كل عن الآخر.

4 - النظم هو التعليق .

5 - النظم هو توخي معاني النحو .²

والمعنى من خلال انتصاره والسؤال المطروح : هل تأثر الجرجاني بغيره لتبدأ فكرة النظم تأخذ طريقها لوضع القواعد التي اعتمد عليها ؟ ذهب إبراهيم خليل في كتابه " في نظرية الأدب وعلم النص " أن الجرجاني تأثر ببلاغة أرسطو " ولا ريب في أن عبد القاهر كان قد اطلع على كتاب

¹ صالح بلعيد، نظرية النظم، دار هومة للطباعة والنشر، بوزريعة، الجزائر، 2004، ص 94.

² المرجع السابق، ص 143.

أرسطو وأفاد من حديثه عن حذف أدوات الوصل وما في ذلك من مزية بيد أن أرسطو لم يتطرق للتقديم والتأخير " ¹.

وقبل الجرجاني نجد كثيرا ممن تحدث عن النظم لكن ليس بالمنظور البلاغي الجمالي والاصطلاحي كما طرحه الجرجاني . نذكر منهم :

" سيوييه (ت175هـ) عند حديثه عن النظم ينظر إلى المعاني الدلالية والبلاغية ولم يشير إلى مصطلح النظم لكنه لمح له في كثير من المواضع بكلمة التأليف التي يعنى بها النظم انطلاقا من الألفاظ المفردة (ألفاظ) لضمها في شكل كتل أو مجموعات (كلام مفهوم- تركيب) واستعمل قواعد عربية من كلام العرب أي الكلام الحسن أو المستقيم منطلقا مما يتفوه به العرب السليقيين وبذلك أقام للكلام الجيد أساسا من أبنية اللغة وبحث في تراكيبها ووضع القواعد التي تضمن سلامتها منتهجا أساليب العرب المتواترة في سنن كلامه وتوصل إلى وضع الأسس الأولى للنظرية اللغوية في مسألة حسن الكلام بوضع :

1-ضوابط الكلام من كلام العرب

2-منهجه تحليل هذه الأصول والتعليل لها .²

" وبعد سيوييه تحدث أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 210هـ) عن النظم عندما ناقش مجاز القرآن لكنه لم يحدد معالم تحديد هذا النظم رغم انه كان واضحا في كيفية الطرح حيث اعتد بكل نشاط لغوي يحدث داخل السياق ومن ثم قام أبو عبيدة بترشيد الذوق البلاغي معتمد على فقهه بالغة العربية وأساليبها واستعمالها والنفادة إلى خصائص التعبير فيها ففسر ظاهرة إيجاز الحذف في اللغة العربية وبين أنها من مذاهب العرب يفعلونه إرادة التخفيف ويشترط فيه علم السامع به ...

أما الجاحظ (ت255 هـ) فقد فرق بين النظم القرآني ونظم الكلام وتحدث عن اللفظة المفردة واشترط عليها أن تكون خالية من تنافر الحروف لا وحشية جارية على السنة العرب ومهيكله قواعديا وان تكون الألفاظ سهلة كأنها لفظ واحد وأجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك انه افرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري ذهنان وعلى العموم فإنه جعل مدار الإعجاز في القرآن هو النظم...

أما ابن قتيبة(ت276 هـ) فقد تحدث عن النظم وخص القرآن بأنه معجز بتأليفه البديع ونظمه العجيب وهذا النظم يعود إلى ما فيه من المعاني البلاغية التي تعتمد على دقة التعبير وإجادة التصوير بأسلوب يثير الخيال ... ويعطى مثلا لذلك من التقديم والتأخير فيقول "ومن المقلوب أن يقدم ما

¹ إبراهيم خليل، في نظرية الأدب وعلم النص ، منشورات الاختلاف .الجزائر العاصمة، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ط 1، سنة 2010، ص214-215.

² صالح بلعيد، نظرية النظم، ص 95.

يوضحه التأخير ويؤخر ما يوضحه التقديم " كقوله تعالى " فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله " ي مخلف رسله وعده لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل فتقول أخلفت الوعد وأخلفت الرسل كما يعرض إلى مجموعة من الآيات مدافعا عن النظم القرآني وخلاصة ذلك هي :

1- أن يكون التقديم لمن يجهل الخبر.

2- الأكثر يقدم والأقل يؤخر، وهكذا يصبح النطق لا فائدة منه إذا غاب التناسق بين دلالات الألفاظ على اعتبار أن تناسقها طريق لفهم كتاب الله .

أما المبرد (285) فرأى أن النظم في دقة الصروف اللغوية التي تحدث من حال لآخر... ومن ذلك نظرتة للتقديم حيث اعتمد الرتبة ومراعاة الأصل لكنه لم يتحدث عن الجانب البلاغي فيقول في بعض المواضع " ألا تري انك إذا قلت ضننت زيدا أخاك وإنما يقع الشك في الأخيرة فإن قلت ظننت أخاك زيدا أوقعت الشك في التسمية وإنما يصلح التقديم والتأخير إذا كان الكلام موضحا عن المعنى"... و نراه في هذه المواقع يؤكد على المعاني النحوية وما تفيده الحركات من تعبير دلالي... وأما علي بن عيسى الرماني (ت384) وكان معاصرا للخطابي تحدث على الجانب البلاغي في القرآن، واعتبر البلاغة من أهم مظاهر الإعجاز، وهناك علاقة بين البلاغة والتأثير النفسي، فالبلاغة ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي أداة لإيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وأورد (الرماني) الخصوصيات البلاغية في القرآن، كالإيجاز والتشبيه والاستعارة والتجانس والمبالغة والتعريف، وأورد شواهد من القرآن تؤكد عظمة الأسلوب البلاغي في القرآن، مبرزاً جانب الإعجاز البلاغي... وفي كتابه النكت في إعجاز القرآن أجاب عن سؤال وجه إليه ورأى أن وجوه الإعجاز سبعة :

1 - ترك المعارضة مع توفر الدواعي.

2 - شدة الحاجة.

3- التحدي للكافة .

4- الصرفة.

5- البلاغة.

6- الأخبار الصادقة عن المستقبل.

7- نقض العادة و قيامه بكل معجزة .

وفي حديثه عن البلاغة تحدث عن أقسامها وعن التلاؤم الذي يقصد به صحة البرهان في القرآن الذي بلغ حد الإعجاز وعن حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ... وأهم نقطة في حديثه عن

الدلالة عند هذا العالم الفذ في سياق النظم يقول : دلالة الأسماء والصفات متناهية فأما دلالة التأليف فليس لها نهاية لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية¹

ويذكر بلعيد أبا سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت 388هـ)

عن النظم في التراكيب وعن الارتباطات التي يطلق عليها النظم فلخص رأيه في أن الكلام يقوم على:

1- لفظ حامل.

2- معنى به قائم.

3- رباط لهما ناظم.

و قد حاز القرآن في هذه الثلاثة معا غاية الشرف والفضيلة .ففيه أفصح الألفاظ وأعذبها وأجزلها. وأحسن التأليف وخير المعاني ...

أما أبو الهلال العسكري (ت395هـ)في كتابه الصناعتين الكتابة والشعر فتحدث عن رداءة التأليف مع حسن التأليف وعرض لمسائل بلاغية ركز فيها علي جودة الرصف والسبك وخلاف ذلك ... قائلا "وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية ."

وأما أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت403هـ) في كتابه إعجاز القرآن فأهتم بالنظم والبديع فرأى أن القرآن معجز بأسلوبه ونظمه البديع وأثره في النفوس . وترجع بداعة النظم إلى أمور: أولا: مخالفته لما عهد العرب من أساليب السجع والشعر، وهذا ينفي عن القرآن هذه الأوصاف. ثانيا : اشتماله على الفصاحة والبلاغة وعدم التفاوت في مستوى هذه الفصاحة في الآيات والسور، مما يؤكد سمو النظم القرآني وعظمة أسلوبه وتتضح هذه الظاهرة في مقارنة النص القرآني بالنصوص العربية التي كان العرب يفخرون بها في مجال الشعر والنثر، وبعد المقارنة يبرز القرآن في أسلوبه واضح الإعجاز متميز الخصائص رائع النظم مشرق العبارة بليغا في اختيار مفرداته. ثالثا : بناء القرآن من الأحرف التي بني عليها كلام العرب وهذا من الإعجاز، فهذه الأحرف في فواتح السور دالة على معاني في الإعجاز، ولها آثار واضحة في الخطاب القرآني، وذات دلالات متعددة.

رابعا : ابتعاد القرآن عن الألفاظ الوحشية المستكرهة والغريبة المستنكرة، واستخدام الكلمات السهلة والعبارات الواضحة، وهذا من الإعجاز.

¹ المرجع السابق، ص 95 و ما بعدها.

وأكد الباقلائي أن القرآن منزل بلسان العرب ولكنه نزل على وزن يفارق سائر أوزان كلامهم ولو كان من بعض ما ألفوه من نظم وشعر لعرفوا أن صاحبه قد برع فيه وتقدم، ولكنه جاء من غير جنس كلامهم، وليس يخرج الحذق في الصنعة إلا أن يؤتى بغير جنسها وما ليس منها وما لا يعرفه أهلها، وهذا الكلام يؤكد كلام الوليد بن المغيرة الذي قال لقومه : والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني والله ما يشبه الذي يقوله محمد شيئاً من هذا.

وقال في ذلك : " نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعتاد من جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد."¹

وذكر الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم والكلام الموزون غير المقفى والكلام المسجع وغير المسجع، وأكد أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق، وأن المتأمل إذا تأمله تبين له خروجه عن أصناف كلام العرب وأساليب خطابهم وأنه خارج عن العادة وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه.

ولا يتصور أن يكون لحكيم هذه الفصاحة والغرابة والتصريف البديع والنظم المحكم في كتاب طويل كالقرآن، وتنسب لبعض الحكماء كلمات وأمثلة رائعة، ولبعض الشعراء قصائد متينة رفيعة من حيث النظم من وضوح التكلف في معظم ذلك، وجاء القرآن فصيحاً في كل آياته عظيماً في نظمه بديعاً في تألفه، وليس فيه تفاوت ولا تباين في مختلف الموضوعات في القصص والمواعظ والتشريع والوعيد والأخلاق.²

و رد الباقلائي على من قال بوجود السجع في القرآن بما يلي:

لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب ولو كان داخلا فيها أو واحدا منها لم يقع بذلك إعجاز.

لو كان في القرآن سجع لجاز أن يقولوا هو سجع معجز ويتبع ذلك أن يقولوا شعر معجز.

إن السجع مما يألفه الكهان من العرب، والكهانة تنافي النبوات، وإذا كان القرآن قد نفى عن نفسه صفة الشعر فلا بد أن تنتفى صفة السجع أيضا.

قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن كلموه في شأن آية الجنين كيف ندي (أي نعطي الدية) من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل، فمثل ذلك يطل، قال لهم: «أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟»

¹ الباقلائي، إعجاز القرآن، ص 55.
² المرجع السابق، ص 56 وما بعدها.

أكد الوهم فيمن قال بسجع القرآن، وقد يكون الوهم على مثال السجع وإن لم يكن سجعا، وفي اللفظ يتبع المعنى اللفظ، بخلاف القرآن فاللفظ تابع للمعنى.

جاءت بعض الآيات على سبيل السجع ولم تأت مقصودة ومتكلفة.

لو كان الذي في القرآن سجعا لكان مذموما مردولا لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام.

لو كان ما في القرآن سجعا لما تحير العرب فيه، ولكانت الطباع تدعو إلى معارضته لأن السجع غير ممتنع عليه.

من قال بالسجع لا بد من القول بفكرة الصرفة التي قال بها (النظام) وأمثاله الذين قالوا بأنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز وإنما صرفوا عنه ضربا من الصرف.

من جوز السجع في القرآن فقد سلم بوقوع الخطب في طريقة النظم، ويكون قد استهان ببديع نظمه وعجيب تأليفه الذي وقع به التحدي¹.

"إذن القرآن بديع النظم عظيم التأليف متناه في البلاغة إلى حد يعجز عن إدراكه البشر" لقد كان القرآن معجزا لأن نظمه خارج عن جميع وجوه النظم المعتادة في كلامهم، و مباين لأساليب خطابهم².

كما ناقش النظم القاضي عبد الجبار فيعطي الميزة لضم الكلمات إلى بعضها لا إلى المعاني الغفل ولم يعط قيمة للفظ المفردة وقد تعرض القاضي عبد الجبار لموضوع التحدي بالكلام وأكد أن الفصاحة في الكلام لا تظهر في اللفظة الواحدة والكلمة المفردة، وإنما تظهر عند ضم الكلمات إلى بعضها فيقع التناسب والتجانس، ويتحدد في هذا الإطار موقع اللفظة من حيث دورها في التعبير عن المراد، والكلمة ينظر إليها من زاويتين :

الأولى : نظرة في حال أفرادها، ونظرة أخرى في حال نظمها مع غيرها، ولا بد من تحديد مفهوم الكلمة بذاتها من حيث وضعها عند أهل اللغة، ومفهومها في إطار موقعها في الجملة من حيث موقعها الإعرابي، ومفهومها حين تأخذ مكانا خاصا في الكلام، من حيث المعنى المستفاد منها... والكلمة لا يمكن أن تفهم إلا في إطار موقعها العام في الكلام، والوظيفة التي تؤديها، فقد تفهم المعاني، وتتحد المفردات، ثم يقع التباين في مدى الفصاحة والبيان والإفهام والتأثير، وهنا نكتشف عظمة الدور الذي يؤديه اختيار الكلمة وموقعها، وهنا تبرز الفصاحة..

¹ المرجع نفسه، ص 90 وما بعدها.

² صالح بلعيد، نظرية النظم، ص 102، 103.

وهذا يؤكد اهتمام القاضي عبد الجبار بالنظم، والنظم كما أورده كالثياب المنسوجة تتفاضل بمواقع الغزل وكيفية تأليفه وتنسيقه، مع أن الغزل في حقيقته لا يتغير، والكلام يتفاضل أثره ويتباين معناه بحسب قوة المتكلم، وقدرته على اختيار مواقع الكلام من حيث التقديم والتأخير، وهذا يحتاج إلى قدرة ذاتية تعطي صاحبها فصاحة وقوة بيان، ولا يتم ذلك إلا بتأييد من الله والطاق ورعاية وتوفيق. وهذا المنهج يقودنا إلى إقرار فكرة الإعجاز القرآني، من خلال توافق اللفظ والمعنى، وتكاملهما في أداء الدور المطلوب فيهما، فالتأليف هو الدور الأهم في فن الفصاحة، بحيث تكون اللفظة دالة على المعنى المراد، وتقع في الموقع المناسب لها، ولهذا عند ما يقع التحدي بالكلام فلا بد من أن يكون تأليف هذا الكلام في أعلى درجات الترتيب والتنسيق وحسن التركيب بحيث يكون الكل في موقعه المناسب، من حيث اختيار الكلمة، واختيار موقعها في الجملة، لكي يؤدي هذا التركيب المحكم الغاية المطلوبة. ولهذا يتفاضل الفصيح من الكلام بتفاضل الكتاب، مع أن الألفاظ واحدة، فالأقدر على التأليف هو الأفصح، ولا نهاية للفصاحة، ويقع الإعجاز فيما وقع التحدي به والعجز عن الإتيان بمثله.

والقاضي عبد الجبار يركز على أهمية الفصاحة في الإعجاز ولا يتصور الإعجاز إلا بالفصاحة، والفصاحة عنده لا تتوقف عند حدود النظم ولا علاقة لها بالشكل والقالب، من حيث كون الكلام شعرا أو نثرا مسجوعا، فالنظم عامل في الفصاحة له أثره الواضح ولكنه ليس العامل الوحيد، ولا بد في الفصاحة من تكامل حسن المعنى وجزالة اللفظ، ومتى تحقق هذا الشرط في الكلام كان فصيحاً، سواء كان شعرا أو نثرا، وكلما زادت معالم هذا التوافق في اللفظ والمعنى اتضحت الفصاحة وبرزت في الكلام... فلا ينظر إلى المعاني الغفل واللفظة المفردة، وإنما تظهر ميزة الكلام في جزئه الثالث الذي هو ضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة وهذه الطريقة تكون بالإبدال التي تختص به الكلمات أو التقدم أو التأخر الذي يختص به الموقع أو الحركات التي تختص بالإعراب والخلاصة فإن هؤلاء جميعا تحدثوا عن النظم دون أن يفصلوا فيه ودون الحديث عن مفعوله في الأداء الكلامي .

وهكذا يكون آخر من أرسى قواعد النظم هو عبد القاهر الجرجاني الذي دافع بحماس وبني له أساسا حتى أصبح النظم نظرية لها صيتها الكبير¹ ذكر صالح بلعيد أنه لم يأت باحث أو عالم بأحسن مما قدم الجرجاني.²

¹ المرجع السابق، 104.

² أنظر المرجع نفسه، ص 105.

يقول سيد قطب في حديثه عن نظرية عبد القاهر: " عبد القاهر هو الذي حسم قضية اللفظ والمعنى ولو خطى خطوة واحدة في التعبير الحاسم عنها لبلغ الذروة في النقد الفني"¹ يقصد لو جعلها بلفظ مصطلح النظرية.

وإن كان أحمد أحمد بدوي في كتابه عبدا لقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية يخالف ما ذهب إليه السيد فإنه يرى أن مضمون كلام الجرجاني في النظم يوحي بها ولا نكلف عبد القاهر في ذلك العصر أن ينطق بمثل هذه اللفظة فلكل زمان ألفاظه الشائعة وعباراته الدارجة.

و يقول السيد " وصل عبد القاهر إلى تقرير نظرية هو أول من قررها في تاريخ النقد العربي ويصح أن نسميها نظرية النظم"²

و النظم عند ابن خلدون (ت 1406هـ) ربطه بمفهوم الأسلوب وهو عبر عنه بالمنوال قال " فأعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تتبع فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه "، و قال "إعلم أن صناعة الكلام نظما ونثرا إنما هي فن الألفاظ لا في المعاني وإنما المعاني تتبع له و هي أصل" و النظم عند ابن خلدون يتمثل في احتذاء كلام العرب و البيان يكمن في البلاغة وحسن اختيار الألفاظ... فابن خلدون "خالف كثيرا من السابقين الذين نظروا إلى أن النظم فيما تؤديه اللفظة من معني وابن خلدون لا يعطي قيمة للمعنى بل المعنى تابع فقط"³.

¹ سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط 16 ، 1423هـ، ص194 .

² سيد قطب ، النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، القاهرة ، ط 10 ، 1410هـ، ص126.

³ صالح بلعيد ، نظرية النظم ، ص 155.

النظم عند الراجعي

3-1 الجمال والجمالية في النظم

إن إحساس بالجمال والميل إليه مسألة فطرية تعيش في أعماق النفس البشرية فهذه الأخيرة تألف كل ما هو جميل وتتقبله .

تعريف الجمال : هو البهاء والحسن قال ابن سيده : الجمال : الحسن يكون في الفعل والخلق . وقد جمل الرجل بالضم جمالا فهو جميل ... والجمال يقع على الصور والمعاني ومنه الحديث " إن الله جميل يحب الجمال" أي حسن الأفعال كامل الأوصاف ¹ والاصطلاح "هو ما يثير فينا إحساسا بالانتظام والتناغم والكمال وقد يكون ذلك في مشهد من مشاهد الطبيعة أو في أثر فني من صنع الإنسان وإنما لا نعجز على الإتيان بتحديد واضح لماهية الجمال لأنه في واقعه إحساس يتولد فينا عند رؤيته أثر تتلاقى فيه عناصر متعددة ومتنوعة ومختلفة بالاختلاف الأوضاع ومعرفة الجمال ليست خاضعة للعقل ومعاييره بل هي اكتناه انفعالي" ²

وتعريف الجمال له مفهوم فلسفي ، إذا عدنا إلى الوراثة إلى الفلسفة اليونانية القديمة حيث اختلفت الأنظار في إعطاء مفهوم دقيق للجمال. يقول سقراط "إنه لا يجعل الشيء جميلا إلا وجود كماله والمساهمة فيه مهما تكن سبل الوصول إلى ذلك وكيفية الحصول عليه فلست أقطع برأي في الكيفية ولكنني أقرر بقوة إن الأشياء الجميلة كلها إنما تكون جميلة بالجمال" ³ ويرى "إن الجمال معدوم على هذه الأرض وموجود فوق العالم أو ما وراءه . والجمال في ذاته لا يلمس أو يمسه ولكن هذا لا يمنع من أن نعمل ما في وسعنا محاولة للتقرب منه" ⁴ ربما هذا الرأي لأفلاطون يقرب ويلخص لنا بإحكام الرأي العام السائد في الفلسفة اليونانية ذلك الوقت فأرسطو أكبر شخصية فلسفية عندهم " لم تكن له نظرية جمالية بالمعنى الصحيح الذي يتمثل عند أفلاطون مثلا فهو يجعل من الجمال مبدأ منظما في الفن لم يقل البتة - أو يعنى - إن غاية الفن هي جلاء الجميل، والقوانين الموضوعية للفن مستتبطة لا من بحث في الجميل وإنما من ملاحظة للفن من حيث هو وللآثار والتي ينتجها" ⁵

¹ ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر للطباعة والنشر، لبنان، ط1، سنة 1992، ص 202.

² حبور عبد النور، في المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط2، 1984، ص 85.

³ عبد الكريم هلال خالد، أسس النقد الجمالي في تاريخ الفلسفة، منشورات قار يونس، بنغازي ليبيا، ط1، 2003، ص 24.

⁴ محمد مرتاض، مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، د ط، سنة 1998، ص 18

⁵ عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، د، ط 2000، ص 33-34.

ويتجلى لنا من كل ما سبق إن للجمال مفاهيم متعددة تختلف باختلاف الأشخاص قديما وحديثا "وما إقبال الناس على تذوق الأدب إلا دليل على حب الناس للجمال في كل مظهره وفي مختلف إشكاله الفنية. لكن إذا سألتهم عن السبب في حبهم للجمال بهذا القدر في الأعمال الأدبية أو أنك طلبت منهم تعريفا محددًا له فإنه من الصعب عليهم الإجابة بطريقة سهلة ومباشرة ذلك لأننا نحس به في أحاسيس كثيرة لكن يستحيل وصفه بصفة ثابتة. فالإحساس بالجمال يختلف من شخص إلى آخر ولكن الشيء المتفق عليه أنه إحساس ممتع يثير البهجة والفرحة في النفس"¹

وبالتالي نخلص إلى أن الجمال هو " ... القيمة الحقيقية للنص وهو الذي يسعى القارئ للحصول عليه بعيدا عن الايدولوجيا و الأفكار التي يحملها والخلفيات التي يستند إليها "²

ولكن ندرس نحن هذا الجمال فلا شك أنه لم يأت بطريقة اعتباطية وإنما قام على أسس نستخلصها من التعريفات السابقة على رأسه الاستعداد الفطري و التلقائي لقبل هذا الجمال وطريقة تعاملنا وردة فعلنا اتجاهه إذ أن " الجمال هو ما يحدث لذة ذاتية مباشرة ومجردة عن أي غرض وبدون أي مفهوم يحدده ، إذ الذاتية أو الفردية ما هي إلا مرحلة أولى في الإدراك الجمالي غير أن الذوق هو ملكة الحكم على شيء ما بأنه جميل أو قبيح بالنظر إلى تلك اللذة التي تصحب تأمل الجميل"³ وكل هذا يدفعنا إلى تسليط الضوء على نقطة مهمة تتعلق أساسا بـ: " علم الجمال" فعلم الجمال عندما يكون مجردا من صفة "الأدبي" له جذوره الضاربة في أعماق التاريخ وخاصة بين تلك الأمم التي كانت لها أصرة وطيدة بالحضارة "فعلم الجمال Esthétique" "عند عبد النور" "علم يدرس: أ- طبيعة الإحساس الفني.

ب- ما يبتعث الجمال في شكل من أشكال الفن أو التعبير"⁴

ولكن علم الجمال لا تقتصر على الأدبي والفني فقط بل: "... لا تقتصر الإستيتيكا على الجميل في موضوعاتها فحسب بل يدخل القبيح فيها وذلك عن طريق الصور و الإيقاع و النغمات و الرمز ليحقق صفاته الجمالية. ورغم أن الفن هو أهم مواضيع الأستيتيكا لكن ليس موضوعها الوحيد بل هناك الطبيعة والإنسان وما ينتجه من آثار على جانب آثاره الفنية البحتة".⁵

¹ نبيل راغب، التفسير العلمي للأدب ، نحو نظرية عربية جديدة ، دار نوبار للطباعة ، القاهرة ، ط1، سنة 1997 ص 304.

² محمد الصالح خرفي، بين ضعفين، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر ، ط1 سنة 2005، ص 20.

³ عبد الكريم خالد، أسس النقد الجمالي، ص 53.

⁴ جبور عبد النور ، المعجم الأدبي، ص 86.

⁵ عقيل مهدي يوسف ، الجمالية بيت الذوق والفكر، مطبعة سلمى الفنية ، بغداد، ط1، س1988، ص13.

وهذا المفهوم لا يدفعنا لتحبيد الفن وعزله بل إن هذا الأخير يعتبر " أعلى شكل في عملية الوعي الجمالي عن الواقع كما يبحث علم الجمال بصورة عامة في جميع الأجناس الفنية عن قوانينها الخاصة بها في عملية التطور، مثلا إن الفنان لا يكفيه فقط إدراك نوعيات معينة عن الواقع والناس بل يجب أن ينعكس فيها وعيه الذاتي ولعلم الجمال جانب دراسي نظري وجانب تطبيقي عملي".¹

ويمكن القول من كل ما سلف أن علم الجمال أو "الجماليات" مصطلح اشتق من : " الكلمة الإغريقية والتي تشير إلى فعل الإدراك وأيضا من الكلمة التي تعني الأشياء القابلة للإدراك وذلك في مقابل الأشياء غير المادية أو المعنوية. ويتفق الباحثون بشكل عام على أن علم الجمال نشأ في البداية باعتباره فرعا من الفلسفة ويتعلق الأمر بدراسة الإدراك للجمال والقبح ويهتم أيضا بمحاولة استكشاف ما إذا كانت الخصائص الجمالية موجودة موضوعيا في الأشياء التي ندركها أم توجد ذاتيا في عقل الشخص القائم بالإدراك ويعتبر "بومجارتن أول من ذكر هذا المصطلح "علم الجمال" في كتاب خاص عام 1750م فعلم الجمال علم قديم حديث ارتبط بالمباحث الفلسفية في أول الأمر ثم استقل كعلم في بداية النهضة الأوروبية"².

وفي بداية القرن العشرين " ارتبط الجمال بالمضمون وكانت نظرية التحام الشكل بالمحتوي التحاما عضويا قد استقر عليها أغلب الأدباء".³

لان انسجام الشكل مع المحتوى هو الذي يحقق القيمة الجمالية للعمل الفني عند بعض النقاد وبعدها "... أخذت بحوث علم الجمال تصب في الآونة الأخيرة في مجال تأويل النصوص مما جعلها تأسيسا لنظريات القراءة والتلقي الساندة لبلاغة الخطاب فاقترح الباحثون إعادة النظر في منهجية فقه اللغة التي أصبحت مغلقة على كل النظريات حيث يرون أن تطوير مذهب تأويلي لا يتجاهل علوم اللغة بالتأكيد لكنه يوفق بينهما وبين علم الجمال"⁴. والجمال في القرآن الكريم جاء جميلا بنظمه وأسلوبه ومضامينه يدعو ويربي الأمة على الجمال : جمال الأرواح والسرائر وجمال الأجساد والمظاهر، جمال الكلمة والتعبير، جمال المعاملة ، جمال الاعتقاد وجمال الأخلاق والجمال في كل شيء.

الجمالية

¹ عدنان محمد رشيد، دراسات في علم الجمال، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، ط1 ، س1985 ، ص13-14

² محمد الصالح خرفي ، بين ضفتين ص 21.

³ أحمد كمال زكي، دراسات في النقد الأدبي، الشركة المصرية العلمية للنشر، القاهرة، ط1، س1997، ص277.

⁴ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، س1966، ص59.

بعدما سلطنا الضوء علي الجمال وعلم الجمال وجب علينا أن نتطرق إلى موضوع الجمالية والحقول الفنية التي اشتغل فيها .

تعريف الجمالية :

الجمالية : " مصدر صناعي مشتق من الجمال والمصدر الصناعي يطلق على كل لفظ زيد في آخره حرفان هما : ياء مشددة بعدها تاء تأنيث مربوطة ليصير بعد زيادة الحرفين اسما دالا على معنى مجرد لم يكن يدل عليه قبل الزيادة وهذا المعنى المجرد الجديد هو مجموعة الصفات الخاصة بذلك اللفظ مثل : الاشتراك والاشتراكية والوطن والوطنية والإنسان و الإنسانية¹ يفهم من هذا أن الجمالية لا تحمل معنى الجمال فقط و إنما تتضمن معاني أخرى زائدة عليه نوضحها فيما يلي:

أن المنتبع لتاريخ "الجمالية" يجده مختلفا عند الأمم فإذا كان قد واكب بداية و نهاية الفكر اليوناني فإنه في فرنسا كان قد انتشر منذ القرن الثامن عشر ميلادي وفي بريطانيا خلال القرن التاسع عشر على يد "بيتر" والذي يوصف بأنه "... أدق النقاد تمثيلا ممن أنجبتهم المدرسة الرومانسية إلي اليوم ويعلق الناقد " جونسون" بأن أعراض (الجمالية) كانت قد ظهرت في سنة 1831م ووجد الجماليون مصدر إلهامهم عند " كينس" على أن هذه الجمالية استغلها كثير من الشعراء لخدمة الرذيلة مع أنه في واقع الأمر لا تعني إطلاقا أن ينحاز الفن لخدمة شيء بدون هدف ومن الذين ذهبوا إلى أن الأدب إنما من أجل الأدب لا لهدف نبيل أو غاية سامية أو أخلاقية (أوسكار وايلد) و(بودلر) و(ارنست دواوسن) وغيرهم² فالجمالية تمثل رؤيا خاصة للفن وطريقة لملامسة شغاف الجميل في النص لأجل تذوق فني يكشف حقيقة تلك النصوص وآثارها على الفرد الباحث أو الأفراد الآخرين المتذوقين³

ويبدو لمن تتبع ما كتبه نقاد الجمالية إن هذه الكلمة لها دلالات ثلاث :

- 1- دلالة عامة واسعة تطلق على كل شيء جميل يوصف بالجمال.
- 2- دلالة أضيق ترادف ما تعنيه كلمة فن ، ضرب من الجمال والفنون في صناعة الجمال.

¹ عباس حسن، النحو الوافي ، دار المعارف، مصر ، ط8، ج 3 ، س1987، ص186.

² محمد مرتاض ، مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، د ، ط 1989 ، ص28.

³ محمد الصالح خرفي ، بين ضفتين ص 21 - 22

3- دلالة خاصة جدا تطلق على أحد مذاهب الفن أو مناهجه أو نظرياته¹ وما دام أن الجمال لا ينتهي ويبقى مع الإنسان في حله وترحاله وفي كل زمان ومكان خاضعا لأذواق الناس وردود أفعالهم ، فضلا على أنه يتراوح من بين تلك النظرة الذاتية والموضوعية في سبيل تحقيق تلك المتعة التي يسعى إليها كل فرد في هذه الحياة - وما دام كذلك - فإن الجمالية باقية إلى جانبه . فقد "... أصبحت منهاجا نقديا له أسسه وقواعده التي يبني عليها ، وله مقوماته وتطبيقاته بجانب المناهج السياقية الأخرى (المنهج النفسي، والاجتماعي، والأسطوري) والناهج النصية (البنوية والسيميائية، والتشريحية ...) وأصبح للمنهج الجمالي أيضا أنصاره ونقاده و المدافعون عنه باختلاف المدارس ، لأن كلا منهم يسعى إلى المتعة الجمالية والكفاية الجمالية²

فالجمالية إذا هي الغاية والهدف المنشود الذي يسعى إليه كل مبدع بحثا عن التمييز خاصة في الفن والأدب .

والحديث عن الجمال ينقسم إلى قسمين : ذاتي وموضوعي :

ذاتي : ندركه وفق اعتبارات تتعلق بنا .

و موضوعي : ندركه بناء على شروط تحققت فيه وليست خارجة عنه ، وإدراكنا لجمال النص الأدب بشكل ذاتي يعني امتلاكنا لذوق يحقق هذه الغاية، وقد عرف "ابن خلدون " الذوق بقوله : "اعلم أن الذوق لفظة يتداول المعنتون بفنون البيان ، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان... فالمتكلم بلسان العرب والبلغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم وينضم الكلام على ذلك الوجه جهده ، فان اتصلت معناه لذلك بمخالطة كلام العرب حصلت له ملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه ويسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحنى البلاغة التي للعرب وإن سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحنى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ..."³.

يفهم من كلام "ابن خلدون" أن الذوق استعدادا يتهيأ للناقد بمخالطة كلام العرب يتمكن من خلاله من التمييز بين صحيح القول وفاسده، وبمعنى آخر عن طريق الذوق يستطيع الناقد أو غيره أن يدرك جمال النص الأدبي . فالجمال عند العرب كان يقوم على الذوق ومراعاة الألفاظ ودقة المعاني .

ويضرب ابن قتيبة " مثلا في ذلك : " قال : تدبرت الشعر ووجدته أربعة أضرب:

¹ أمير حلمي، فلسفة الجمال ، دار قوباء للطباعة والنشر ، مصر ، ط 1 1998 م ، ص 231.

² محمد الصالح خرفي، بين ضفتين، ص 30.

³ ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد ، المقدمة ، تح درويش جوبدي ، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت ، لبنان، دط، 2002م، ص 1423.

- ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ... كقول : " أبي ذؤيب الهذلي " :
والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع
- وضرب منه حسن لفضه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعني كقول القائل :

و لما قضينا من مني كل حاجة و مسح باركان من هو ماسح
و شدت على حذب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الحديث بيننا و سالت بأعناق المطي الأباطح

وهذه الألفاظ أحسن شيء مطالع ومخارج ومقاطع فإذا نظرت إلى ما تحتها وجدته: ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الإنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث وصارت المطي في الأبطح ¹

ثم يسترسل "ابن قتيبة" في عرض بقية الأضرب والشاهد فيما اقتطفناه هو طريقة النقد المعتمدة عند القدماء ، إذ الجمال عندهم ما ألفته العرب لا غير وما النقد الجمالي في أبسط مفهومه عندهم إلا "... مجموعة القواعد الجمالية المستمدة من القواعد الأسلوبية والألسنية و اللغوية والبلاغية التي إذا استخدمت متسق ومنظمة ساعدت على تقديم إجابة عملية عن المشكلات الجمالية للنص الأدبي وعملت على تفسير طبيعته " ²

وما أردنا الوصول إليه هو أن الجمال عندهم كان مبنيا على الذوق الفطري ومن ذلك ما يروي " أن طرفة بن العبد سمع المسيب بن علس يقول:

و قد أتتاسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

ناج : المراد جمل سريع ، والمكدم : الصلب القوي.

فقال له طرفة : استنوق الجمل أي أنت كنت في صفة الجمل فلما قلت " الصيعرية عدت إلى ما توصف به النوق ، لأن " الصيعرية سمة حمراء تعلق في عنق الناقة خاصة ، فهذا نقد توجه من طرفة إلى المسيب من ناحية الألفاظ وهو نقد يدل على بصر طرفة بمعاني الألفاظ ومواضع استعمالها ، كما يدل على ذوقه النقدي وفطنته إلى أن مثل هذا الخطأ اللفظي مما يعيب الشعر ويقلل من درجة جودته" ³.

¹ ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، طبقات الشعر والشعراء ، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2003 ص 109.

² احمد رحمانى، نظريات نقدية وتطبيقاتها ، مكتبة وهبة القاهرة ، ط1 1425 ، 2004م ، ص 51.

³ عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، طه دت، ص 21.

وبعد هذا التقديم للجمال والجمالية وكيف توسع المفهوم ليشمل الجانب الأدبي نأتي على دراسة الرافعي للنظم من المنظور الجمالي والذي يراه في الجمل والكلمات بل وحتى الحروف وأصواتها تمثل الجمالية وفي نفس الوقت تمثل الإعجاز .

3-2 الجمل وكلماتها :

القرآن كلام الله المعجز ولم تعرف أمة من الأمم على مر الدهور وتعاقب العصور ألفاظا تعلو على لغة الناس ويدعن لها البلغاء ويعجز عن مجاراتها الفصحاء كما عرف لألفاظ القرآن الكريم فقد ركبت الجمل تركيبا يخرج عما تعارف عليه الناس فأثر في النفس أيما تأثير وأضفى عليها إحساسا عجيبا لم تألفه ، وما عرف عن أمة من الأمم أنهم أجمعوا على ما كان في هذا القرآن من تناسق وتركيب متميز ينتقل من الصوت في الحرف ومن الحرف في الكلمة إلى الكلمة في الجملة يكون مقدرًا على تركيب الحواس النفسية وهذا ما لم يتجل إلا في هذه اللغة عن طريق المعجزة التي تخرق العادة وتسبق المألوف وقد انتقى الناس البليغ من الكلمات وأفضل الجمل وعارض بعضهم بعضا وسلم بعضهم لبعض وبقي القرآن وحده في إعجاز تركيبه وسلامة معانيه فلا ذكر معه كلام بليغ ولا عورض به . وقد كان العرب في بلاغتهم علي الفطرة فلو جاء القرآن على مثل كلامهم في الطريقة في الشعر والنثر والرجز لذهب مع كلام العرب وما تميز عنه فكانت هذه الألفاظ " كيفما أدرتها وكيفما تأملتها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردنا ومن أي جهة وافقتها فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة والحلاوة البادية والانسجام العذب وتراها تتساير إلى غاية واحدة... ولا يمنعها اختلاف حروفها وتباين معانيها وتعدد مواقعها من أن تكون جوهرًا واحدًا في الطبع والصقل وفي الماء والرونق... تختلف الألفاظ ولا تراها إلا متفكة وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة وأنت لا تعرف منها إلا روحًا تداخلك بالطرب وتشرب قلبك الروعة"¹ وتجد هذا في سائر كلام الله في حين لو أنك تدبرت كلام البلغاء وأساليب الخطباء وقد يعجبك في موضع وتنفر منه في موضع آخر وقد يطربك في ناحية وتتقبض منه في ناحية أخرى بينما لا ترى في جهات التركيب القرآن ومواقع تأليفه مع تعدد أغراض الكلام فيه فلا ترى إلا صورة متكاملة في سائر أجزائه سوى التركيب متناسق الجمل فلا ترى آية تنتقص من آية ولا جملة تزهدك في أختها "إن طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها وفي التمكين من للمعني بحس الكلمة وصفتها... وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته

¹ الرافعي، تاريخ آداب العرب ، ج 2، ص 240-241.

على حسب مواقع الكلمات لا يتفاوت ذلك ولا يختل فمن أين يدخل على قارئه ما يكد لسانه أو ينبو بسمعه أو يفسد عليه إصغائه أو يرده عما هو منه بسبيله أو يتقسم إحساسه ويتوزع فكره...¹ ويضرب الرافعي لذلك مثلا في حسن استواء الألفاظ وتركيب الكلمات أن الصبيان في المكاتب يسهل عليهم إظهار القرآن وإثباته في صدورهم لما فيه من هذا الاتساق في نظمه، فلو أن الصبيان أخذوا بفن من الفنون أو حاولوا حفظ شيء من العلوم والمعارف لأعيانهم ذلك وانقطعوا عنه ولا يجمعون شيئا منها في وقت طويل ولو أجهدوا أنفسهم فيه لجمع القرآن لأخذوا منه بقسط كبير في مثل هذا الوقت "على أنهم يبلغون من هذا بالعمق والأناة ولا يبلغون مثله من ذلك إلا بالعبث والجهد"². والتركيب بين الجمل والعبارات بعوامل الربط والنظر في الجمل ليعرف الفصل من موضع الوصل وموضع الحروف في مكانها وحق التعريف والتكثير والتقديم والتأخير وغيرها تشكل النظم . وحين يقول الجرجاني "واعلم أن ليست المزية واجبة لها في نفسها من حيث هي على الإطلاق لكن تعرض بسبب من المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض فالتكثير لا يروق في كل مقام والتقديم لا يروق في كل مقام..³ فيقصد بالألفاظ التراكيب لأن الألفاظ المفردة عنده ليست ذي بال ولا تكتسب الأهمية في ذاتها فهو " يعد العلاقات القائمة بين الجمل علاقات هي وليدة السياق والمعنى وكأنه بذلك يؤكد أن الأدوات تستمد وظيفتها في الربط من مضمون الخطاب وهو مضمون يقوم على فهم المعاني الجزئية المبنوثة في النسيج اللفظي الذي يضم بعضه إلى بعض كما تظم خيوط الإبريسم بعضها إلى بعض."⁴

فالقرآن في نظمه وتركيبه نمط واحد في القوة والإبداع فلو حرفت ألفاظه عن مواضعها وأزلت الروابط في ما بينها لما كان إلا لغة من اللغات لكنك في هذا التركيب في القرآن لم يكن في كلام عربي قط فكان هذا النظم مما يعجز عنه الناس . قال الأصمعي : كنت أقرأ (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم) فيجيبني أعرابي كلام من هذا؟ فقلت كلام الله فقال ليس هذا كلام الله قال : أعد. فأعدت فأنتهيت فقرأت "والله عزيز حكيم" فقال أصبت هذا كلام الله . فقلت : أتقرأ القرآن؟ قال: لا فقلت من أين علمت؟ فقال: يا هذا عز فحكم فقطع . ولو غفر ورحم لما قطع"⁵ "إذ تراه ينظر في هذا التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها ثم إلى تأليف هذا النظم فمن

¹ المرجع السابق، ص 242.

² المرجع نفسه ، ص.242.

³ دلائل الإعجاز، ص 69.

⁴ إبراهيم خليل ، في نظرية الأدب وعلم النص ، منشورات الاختلاف، شارع حسبيبة بن بوعلي، الجزائر، 2010، ط 1 ص 227.

⁵ بلقاسم بغدادي ، المعجزة القرآنية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر .د.ط 1992،ص105.

ها هنا تعلق بعضه على بعض وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في جملة التركيب كما عرفت¹

قد تجد الخطيب أو البليغ صاحب الأسلوب الرائع والبيان إذا تعاطى الكلام في التقرير والاحتجاج ونصب الأدلة جاء بكلام نازل وأصبت له في هذا الباب" من اللفظ المستكره والمعنى المستغلق والسياق المضطرب والأسلوب المتهافت والعبارات المبتذلة... تبينت كلاما لا تظمن إليه في أكثر جهاته حتى لتعجب أن صاحبه وصاحب ذلك الكلام رجل واحد² ثم قالوا بأن هناك "لفظ متمكن" يريدون أنه بموافقة معناه لمعنى ما يليه كالشيء الحاصل في مكان صالح يظمن فيه، وعن آخر "قلق ناب" يريدون أنه من أجل معناه غير موافق لما يليه.

فالنظم الذي تميز به القرآن فضلا عن توخي أغراض الكلام ومعانيه يختلف عن سائر الكلام في نسق القول حسن الصنعة وأنت إذا رأيت كلام أي بليغ واستحسنته وأعجبت به لكنك لا تلبث أن تستهجنه حيث تفتقد فيه روحا كروح النظم في القرآن وانك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلاماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها وتقع بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضي في وصفه حتى لا ترى في اللغة كلها أدل على غرضك وأجمع لما في نفسك وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة الإعجاز وما عسى أن تقول في كلام ترى للفظ من الألفاظ فيه معنى ثم ترى كأن لهذا المعنى في التركيب معنى آخر هو الذي يفيض على النفس ويتصل بها فكأنه كلام مداخل وكأن اللغة فيه لغتان" ولو أنك أتيت لهذا القرآن بأبلغ البلغاء ليضع له مفردات بألفاظ أخرى بنفس المعاني لضاقت عليه اللغة على سعتها ولأذهب روعة التركيب فيه وأفسد النظم والمعنى معا.³ "وجه الإعجاز فيها دقة تركيب الكلام المنتظم من الصوت في الحرف إلى الحرف في الكلمة للدلالة على معنى هو من أسرار التركيب وما يحقق هذا الإعجاز أن معاني جمل القرآن لو ألبست ألفاظا أخرى من نفس العربية ما جاءت في نظمها و إيقاعها ولا أدت ما أدته الكلمات التي هي أصل الإعجاز في هذا الترتيب الخالد الذي هو القرآن"⁴ قال صاحب جواهر الأدب " فإن الكلام إذا كان موصوفا بالمهذب منعوتا بالمنقح علت رتبته وإن كانت معانيه غير مبتكرة وكل كلام قيل فيه : لو كان موضع هذه الكلمة غيرها ولو تقدم هذا المتأخر وتأخر هذا المتقدم . أو لو تم هذا النقص بكذا أو لو تكمل هذا الوصف بكذا ، أو لو حذف هذه اللفظة أو لو اتضح هذا المقصد وسهل هذا المطلب لكان الكلام

¹ الراجعي ، تاريخ آداب العرب ، ج2، ص245.

² المرجع نفسه ، ص 246.

³ نفس المرجع ، ص 247 و248.

⁴ عز الدين بوبيش ، حقيقة الإعجاز القرآني عند الراجعي، التراث العربي، ص 115.

أحسن والمعنى أبين . كان ذلك الكلام غير منتظم في نوع التهذيب¹ كما عبر عنها صالح بلعيد " التأليف والتنظيم والترتيب والجودة ومن ذلك صنف النظم في علوم البلاغة باعتباره يسعى إلى رصف الكلمات وترتيبها وجودتها وفي حسن التخيير ومعرفة الموقع المناسب² وهو ينظر إلى عالم اللغة من ناحيتين الأولى اللغة التواصلية العادية التي تشكل بالنسبة له " لاصقات " جامدة تشير إلى الواقع ليعرف فيها السامع أن الشجرة شجرة وأن القمر هو القمر وهذه منظومة لسانية عادية لا يتميز فيها شخص عن آخر وأما الثانية فهي اللغة النفسية التي تصبغ علي الأديب لون معيناً يتميز بها الأديب عن الأديب يشعر القارئ أنه يتحسس هذا الواقع حساً فيه لذة من خلال سلاسل اللغة وجزئيات الواقع لا من خلال الرؤية السطحية.³ و كأنه يشير إلى نظرة الشاعر والناقد الانجليزي كولريج حينما يقسم الخيال إلى قسمين : أولي وثانوي . فالأولي هو تلك القوة الأولية التي بواسطتها يتم إدراك الإنسان بعامة وهو متوفر عند كل البشر و أما الآخر فهو الخيال الشعري التي تتجاوز إلى عملية خلق إبداعية ليست بالضرورة متوفرة عند كل الناس بل هو خاصية مميزة للمبدعين.⁴

فالقرآن يفصل اللغة تفصيلاً دقيقاً يعبر عن نفسية الإنسان يجد كل قارئ نفسيته فينجذب إليه وهذا ما لا يحققه الأديب فقد يثير في نفس شخص ما لا يثيره في آخر أو يمس جانباً من الشعور دون جوانب أخرى . و إثارة القرآن للنفوس ممن لهم تذوق أدبي وحس بلاغي وأزاح عن قلبه غشاوة العناد والكبرياء . وألفاظ القرآن بما فيها من ترتيب وتذوق أدبي فهي تخاطب الوجدان وتتأغي الروح فليس القرآن بتأثيره يعتمد الجانب النحوي والبلاغي فحسب بل أيضاً يثير العواطف ويخاطب الوجدان من خلال " وعده ووعيده وأوامره ونواهيته وقصصه ووصفه وبراهينه ويكون بذلك قد لبي بغية الأديب والمهتم بالتذوق البلاغي وكذلك يلبي الحاجة الروحية والنفسية ويغذيها " فيجمع فيها بين الواقعية والمثالية.⁵

فالنظم ترتيب وتأليف وحسن العلاقة واختيار التركيب المناسب جمال الكلام وارتباطه ببعض من صيغ الصرف وملاءمة المعنى لمعنى التي بعدها دليل على ترتيب الأفكار في العقل فالألفاظ وعاء للمعاني فيجمل الوعاء بما يحويه وهو قول الجرجاني " معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض. " فهذا النظم وتلك الروابط التي تكون فيها الكلمة هي التي تستخرج من ألفاظ اللغة دلالاتها، وهذا هو سرّ فعلها، وكأنها وهذه الروابط توتّي الطعم واللون ومهارة

¹ أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، سنة 2012، ج 1 ، ص 21.

² صالح بلعيد ، نظرية النظم ، ص 134.

³ أنظر عز الدين بوبيش، حقيقة الإعجاز القرآني عند الراجعي، ص 116.

⁴ أنظر د محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة 1994 ، ص 257-258.

⁵ أحمد أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن، ص 43.

المتكلم في الربط بين الأفكار والمعاني وألفاظها والعلاقات بعضها مع بعض وسائل ناجحة في الوصول إلى عمق الكلمة وهي التي تجعله يستخرج منها ما لم يستخرجه غيره، ويفتح له بابا من الدلالة لم على غيره وعليه فينظر إلى حال هذا النظم أو تلك القواعد والعلاقات المتناسبة وليس الضم كيفما اتفق . لذلك الجرجاني يجعله نظيرا للتأليف والصياغة والنسج والبناء والتحبير والوشي والقول بتوخي أغراض الكلام إلى تأكيد أن لا مزية لحصر المعنى دون اللفظ، أو حصر اللفظ دون المعنى فالمزية ترجع لكليهما على سواء؛ لأن اللفظ لا يتصور أن يفصل عن المعنى، إذ لا بد لكل دال من مدلول، فترتيب الألفاظ ليس من حيث هي ألفاظ ، بل هو كناية عن ترتيب المعاني، فأبي حصر لأحدهما عن الآخر كان قطعاً لصلة أحدهما عن الآخر وهل يتصور أن تترتب معاني أسماء وأفعال وحروف في النفس ثم يخفى علينا مواقعها في النطق.

ويرى أبو الهلال العسكري أن المعجز من الكلام أرقى من البليغ البشري وعلينا أن نستثمر هذا الأخير لإدراك الأول واستيعابه والافتدائه به، وذهب إلى أن أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل، والخطب والشعر وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب.¹

" يقول العسكري عن حسن التأليف ودوره في التعبير: " وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية، فإذا كان المعنى سبباً ورفص الكلام ردياً لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليه طلاوة وإذا كان المعنى وسطاً، ورفص الكلام جيداً كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا " فالميزة إذن في التشكيل الفني للنص، وهو مدار كل تفاضل وتقويم، والواقع أن العسكري لم يحاول " أن يرسم نظرية للنظم على نحو ما فعل الإمام عبد القاهر، ولكنه شغل بالحديث عن المعاني والتنبيه على خطئها وصوابها " لأنه ركز على التشكيل البلاغي للنص، فكان النص عنده " بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا في المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا، وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا " ولا بد لهذا العقد من ناظم يحسن صناعته ويتفنن في تشكيله.

إن العسكري يؤكد على براعة الفنان في نظم الكلام، وقد حدد شروطاً لهذه العملية حيث عقد فصلاً للحديث عن كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه يقول: "إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطر معانيه ببالك، وتتوق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك، ليقرّب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلبها، واعمله ما دمت في شبابك نشاطك فإذا غشيك الفتور، وتخونك الملل فأمسك.." وبذلك فإن هذا الناقد يؤكد على قضية مهمة وهو أن تشكيل النص يقتضي توقيتاً

¹ انظر محمد تحريشي، النقد والإعجاز من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، س 2004 ص 60-61 .

ملائما حتى يخرج في أحسن صورة وأبهاها ويحقق مبدأ "السهل الممتع" الذي يعتمد الاختيار الملائم لكل العناصر المكونة للنص سواء أكانت داخلية تخص طبيعة اللغة ونفسية مستعملها، أم خارجية تخص وظيفة النص داخل مجتمع معين.

و يقود مثل هذا التحليل إلى الاهتمام بالكتابة الفنية وتحديد خصائصها، والكشف عن ما يليق بها وما هو دون تلك. يقول: "ينبغي لصانع الكلام ألا يتقدم الكلام تقدما، ولا يتبع ذناباه تتبعا ولا يحمله على لسانه حملا؛ فإنه إن تقدم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيله وأعجفه والشارد منه. وإن تتبعه فانتبه سوابقه ولواحقه، وتباعدت عنه جياده وغرره، وإن حملة على لسانه ثقلت عليه أوساقه وأعباؤه ودخلت مساويه في محاسنه"¹ وهذا الذي أشار إليه الراجعي في كلامه عن انتقاء الألفاظ المناسبة المكونة للجملة التساوقة والمتناسقة تؤلف منه نظما يحسن به الكلام وتبلغ به العبارة ويروق لها السمع وتجذبك وتعجب بتركيبها.

3-3 الحروف وأصواتها

بذ علماء العرب غيرهم من الأمم عند دراستهم لفيزيائية الصوت حيث سجل الفارابي 339 هـ وابن سينا 428 هـ وإخوان الصفاء القرن العاشر الميلادي دور السابق على علماء القرن الخامس والسادس عشر الميلادي أمثال جاليليو وديكارت وهوك ونيوتن وذلك حينما كرسوا جزء غير يسير من رسائلهم لدراسة فيزيائية الصوت .

وقد عرف إخوان الصفا الأصوات بأنها " قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجرام وذلك أن الهواء شدة لطامته و خفة جوهره ورقة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها ويسري فيها ويصل إليها ويحرك بعضها إلى بعض فإذا صدم جسم جسم آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي يتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج ... إن العقل هو الأرضية المنتجة لفيزياء الصوت والنغمة فلو تخيل الإنسان نفسه مصغيا لصوت ما فإن هذا الإصغاء نظام من ثلاثة أبعاد :

البعد الأول : المصدر الباعث للصوت.

البعد الثاني : الواسطة التي تحمل الهواء من مصدره.

والبعد الثالث : التلقي الذي يمحص الصوت ... فمكونات الأوتار الصوتية للحجر والغدد كمواد غضروفية أو حريرية لا تكسب الأهمية المنشودة لها إلا إذا قرنت بتجويفاتها الهوائية كالرئة أو صندوق العود فترددات واهتزازات الأوتار هي التي تحدد كمية ونوعية الصوت المنقول"²

¹ المرجع السابق، ص 68-69

² خلق خازر الخريشة، الصوت والنغم ، سلسلة منشورات عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة اليرموك، س 1992 ، ص3-4.

وقد اعتنى الأولون بمسألة الصوت وقد أثار الدكتور جمال حضري هذا ودرسه دراسة وافية تحت عنوان المقاييس الصوتية : رعاية الصوت ورعاية التوازن وينقل كلام الرماني .

يقول الدكتور حضري مبينا أن المصطلح قد يغيب ولكن يأتي بدلالات تدل عليه " ورغم ندرة ورود مصطلح الإيقاع في الدراسات الفيزيائية التراثية خاصة التأسيسية منها فإن ما يقابله يكشف عن وعي الدارسين بهذه القيمة الفنية، وقد يختفي المصطلح ذاته ومقابله ولكن إيراد صور التوازنات الصوتية يشير إلى وجود هذا الوعي من خلال إدراك أثره . وينقل قول الخطابي " فانك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة و المهابة في آخر ما يخلص منه إليه... " إذ أن الرماني يعتبر من أوائل من تناول مباشرة هذا المشغل حوالي القرن الرابع الهجري فأبرز بوضوح التوازنات الصوتية في النص القرآني بل إنه لا يجد حرجا - وهو معتزلي - في عد التلاؤم الصوتي من مؤكدات الإعجاز القرآني تماما مثل الباقلاني الأشعري الذي يعد الفواصل . وهي وقفات صوتية - من الصور التي يمكن أن يتعلق بها الإعجاز، وإذا انعدم هذا الاهتمام لدى أشعري بارز هو عبد القاهر الجرجاني الذي لا يرى للصوت مزية ... أما الخفاجي فان الفصاحة عنده قائم على الصوت خاصة وهو القائل بالصرفة في الإعجاز ولذلك عدّ كاتبه رائدا في الدراسة البلاغية للأصوات والألفاظ"¹

والرافعي يبين تحت هذا العنوان أن السر الذي تحمله الحروف ومخارجها وإيقاعها الموسيقي لم يؤخذ أكثره من كلام العرب وإنما سبق القرآن إلى إظهار نغم ونسق وتجانس يستهوي النفس ويؤثر في الشعور سواء فهم كلام القرآن أو جهله " فإنه إنما يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعا مقطعا ونبرة نبرة كأنها توقعه توقيعا "² .

ورأى أن الحروف ليست نبرات موسيقية فحسب تخرج كيفما اتفقت وإنما هي " نوع من التركيب وجهة من تأليف حتى يمازج بعضها بعضا ويتألف منها شيء مع شيء فتتداخل خواصها وتجتمع صفاتها ويكون منها اللحن الموسيقي ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضا على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده "³.

والعرب كانوا يتسلسلون ويسرعون في منطقتهم، فلما قرأ عليهم القرآن رأوا حروفا في كلمات وكلمات في جمل، فوجدوا ألحانا لغوية رائعة متناسبة في وقعها، فعلموا أنهم أمام أمر لا قبل لهم به فبين عجزهم.

¹ جمال حضري، المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1 2010 م، ص 23-

24.

² الرافعي تاريخ آداب العرب، ج2، ص 213.

³ المرجع نفسه، ص 214.

فالرافعي يرى أن الإعجاز يشمل حتى النبرات الصوتية للحروف، والتناسب في صفاتها وترتيبها وهذا التناسب طبيعي في الهمس والجهر والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرير، ولا يخفي أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع الصوت بما يخرج فيه مداً أو غنةً أو لينا أو شدة والحركات المختلفة على مقادير تتناسب ما في النفس من أصولها ويجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع والارتفاع والاهتزاز وغيرها هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى، فتلاوة القرآن بأحكامه وبطرقه الصحيحة يهز الشعور ويستثير أعماق النفس حتى إن القاسية قلوبهم والمنكرون له لتهتز قلوبهم عند سماعه لما فيهم من طبيعة إنسانية وتتابع الأصوات على نسب معينة وخارج مختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية في النفس وعلى هذا يحمل الأثر الوارد " زينوا القرآن بأصواتكم" وهذا من الكمال اللغوي المؤدي إلى إعطاء الحروف حقها والأصوات مخرجها والفواصل في آيات القرآن التي تنتهي بها جمل الموسيقى متفقة مع آياتها اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه فترى أكثرها ينتهي بالنون والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها أو تنتهي بسكون أو حرف من الحروف الأخرى متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها مناسباً لوضعه وأكثر ما أنت واجده في الجمل القصار تنتهي بحرف قوي يستتبع القلقة أو الصفير وهو من ضروب النظم الموسيقية.

وقد انفرد القرآن بهذا الوجه المعجز يخاطب كل نفس تفهمه ولا تفهمه فتتأثر وتستجيب فلو أن حرفاً سقط أو أبدل بغيره لبان الخل وظهر الضعف في نسق الوزن وجرس النغمة وذوق اللسان وانسجام العبارة وتساند الحروف ولرأيت هجنة في السمع مما يمجه الذوق وأن القرآن لذلك لا يمل على كثرة التكرار وبدا في كل مرة غضا طرياً وجديداً يستأنف النشاط في النفس وصفات هذه الحروف يستوي في تذوقها العالم والجاهل فالهمس والجهر والقلقة والصفير والمد والغنة لا يدل إلا على إعجاز النظم من جهة الخصائص الموسيقية.¹

والحروف لها سر خاصة في فواصل القرآن فكثيراً ما نجد حرف النون يليه حرف الميم وهما من حروف الترزم لكنك لا تجد حرف الخاء فاصلة أبداً وهذا لصعوبة الوقف عليها . كذلك تجد في آيات الوعد والتبشير جرس الفواصل فيه رخاء ولطف " إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر "² وسيق الذين اتقوا ربهم إلي الجنة زمرا "³ "قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما

¹ أنظر المرجع السابق ، ص 115 وما بعدها.

² سورة القمر الآية 55.

³ سورة الزمر الآية 70.

أسلفتم في الأيام الخالية"¹ . أما مواضع الشدة والوعيد تأتي الفواصل على نسق واحد فيها قوة وتشديد يقتضي هذا المقام " فدعا ربه أني مغلوب فأنتصر ففتحن أبواب السماء بماء منهمر"²... كذلك لمسوا براعة الاستهلال في فواتح الصور تجدها بالمد والإشباع " كهيعص " " ألم " " ص " " ق" ففي كل سورة نجد نظما وعبقا، يستهوي النفوس ويضطرب الأذان في الحروف وأصواتها على اختلاف مخارجها وصفاتها من مهموس و مجهور وشديد ورخو " وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الإعجاز من وجه وقد يمكن أن تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصها في النظم إذا كانت حروفا كنحو " الم".³ يراها تكمن في روح الانسجام في ترتيب أصواتها ومخارجها علي حسب مقام الكلام باعتبار أن "مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي و أن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في توزيع الصوت"⁴

فالقرآن في هذا الجانب يتميز عن كلامنا فلا تجد متكلما مهما كان موهوبا وبليغا تحس أو تجد له في كلامه هذا الجرس الموسيقي ولا في الحروف التي يتلفظ بها وهذا لا يتوفر في غير أحرف القرآن وأصواته لضعف النفس البشرية ونقصها. وهذه الميزة التي تتميز به ألفاظ القرآن من حيث أن حروف الكلمات والألفاظ والأصوات التي تكون وراءها مما تثير وتهزّ مشاعر النفس والعلاقة بين هذه وعواطف الإنسان لم يتناولها الكثير ممن كتب في إعجاز القرآن وتحدث عن حرفه وموسيقاه ، فالقدماء لا نكاد نجد لهم أثرا في ربط الألفاظ والأصوات بالعواطف "كأن ألفاظه عواطف تتغني"⁵ والجرجاني يرى أن للحروف ترتيب ونظم لكنه خال من المعنى وهي مجرد حروف منطوقة وليس لها سابقة ذهنية فهي بخلاف نظم الكلم الذي يختلف عن نظم الحروف من حيث أنها مرحلة مسبقة بعملية نفسية.

وهو لا يهمل الجانب المعنوي حيث يقول " الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية " وهنا تجده يلتقي ويتوافق مع الجرجاني حيث يقول: "أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبه تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق أم ذلك لما بين المعاني من الألفاظ من العجيب"⁶ وإن كان الجرجاني لا يعطي أهمية كبرى للناحية الصوتية وهذا باب من البديع الذي يعرف لتحسين الكلام وقد كان الشعراء والأدباء يهتمون به اهتماما بالغا

¹ سورة الحاقة الأي23..

² القمر الآية 11.

³ الباقلائي ، إعجاز القرآن ، ص 37.

⁴ الرافعي ، تاريخ آداب العرب، ص 215.

⁵ المرجع السابق، ص 213.

⁶ الجرجاني ، دلائل الإعجاز ،ص 37.

للتزيين في الألفاظ أو المعاني " فحسن اللفظ من حيث الجرس الصوتي وحسن الكلمة من حيث أدائها لمعناها ويزداد حسن أداء الكلام لمعناه بتأثير الرنين الصوتي كما يتضح في الجناس والسجع والترصيع وغير ذلك من ألوان البديع ولتحقيق الجمال والحسن في هذه الأنواع لا بد أن يتحقق الاتصال بالمعني دائما"¹

إنّ انسجام خواتم العبارات صوتيا من مقومات الكلام البليغ فتألف أصوات الحروف تشكل ما يعرف بالنتاغم أو ما يعرف بالإيقاع .

والحروف لها نغم موسيقي وما الحديث عن الكلام الموزون والمسجوع والمتجانس إنما هو صوت ونغمة عند النطق بالحرف له وقعه وجرسه وأثره . يقول أبو حيان التوحيدي " فأما البلاغة فإنها زائدة على الأفهام الجيدة بالوزن والبناء والسجع والتقفية والحلية الرائعة وتخير الألفاظ واختصار الزينة بالركة والجزالة والمتانة وهذا الفن لخاصة النفس لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام والتواصل إلى غاية ما في القلوب لذوي الفضل بتقويم اللسان"² فهو بذلك يجعل للحرف إطرابا لنفس السامع وحلية تلبسها الألفاظ وزينة من خلال الحروف.

يقول حظري" فالرافعي في قسم نظم القرآن وإعجاز تأليفه يدرس الحروف وأصواتها في النص القرآني ويعتبر نظم الكلمات وتأليف حروفها طريقة يتوخى بها على أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب ، والملتقي للقرآن الكريم. والموسيقى المتولدة من الكلام جملة لا تكون إلا عن تناسب يرجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده . ولم يكن العرب بعيدين عن الزخرف الصوتي ولكنه يأتيهم كيفما اتفق مقطعا أما في النص القرآني فقد كان التلاؤم والتناسب قالبا صب فيه النص كله ولذلك عمد مسيلمة والمكذبون الآخرون إلى محاكاة هذا البعد الذي خالف عادتهم وكأنهم فطنوا إلى صدمتهم كانت في أوزان الكلمات وأجراس الحروف وليس هذا الوزن الموسيقي إلا وليد الشعر أو السجع".³

وفي مستوي الصوت ، حدد الرافعي مجال اختيار المتكلم في تنويع الصوت "مدا أو غنة أو لينا أو شدة، واختلاف حركات ومقادير تناسب النفس ، فيمكنه الإيجاز والإجماع أو الإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقي"⁴

¹ محمود أحمد حسن المراغي ، في البلاغة العربية، علم البديع، دار العلوم العربية، بيروت ، ط1 ، س 1991 ، ص 11.

² منير سلطان ، الإيقاع في شعر شوقي الغنائي، منشأة المعارف الإسكندرية ، ط1 ، س 2000 ، ص 127.

³ جمال حظري ، المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية ، ص 55-56.

⁴ الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ص 215-216 .

ويربط الرافعي خاصية النظم الصوتي للقرآن من جهة لطبيعة اللغة الإنسانية التي تتفاوت بلاغتها بالتصرف في الصوت اختياراً ومقداراً، وبطبيعة النفس الإنسانية التي تتفاعل وهذا التصرف الصوتي، وهو ربط بين هذا البعد الصوتي الإيقاعي والبعد التداولي للنص القرآني باعتباره رسالة إلى متلقي أول معصوم متلقين آخرين تتنوع آفاق تلقيهم زماناً ومكاناً ويشير إلى اثر الأداء الحسن في إبراز هذا البعد لأن "التمام الجامع لهذه أسباب صفات الصوت وتنوع طبقاته واستقامة وزنه على كل حرف"¹ .

"ويشير سيد إلى دور الفواصل ويضيف القوافي إلى نظام الإيقاع الصوتي وأنها تتفاوت قصراً وطولاً بالتناسب مع طول السور وقصرها وأما حرف القافية واحسبه عنده حرف الروي " يشهد لتمثيل والتشابه في الصور القصيرة ويقع غالباً في السور الطويلة وتغلب قافية النون والميم وقبلهما ياء أو واو على جميع القوافي في سور القرآن"²

والعناصر هذه تضم تنوع الإيقاع بتنوعها ويأتي مع ذلك متناسقاً متناسباً.

فالإيقاع يظهر في هذه المقطوعة السريعة الحركة القصيرة الموجهة، القوية المبنى وهو يتسق وينسجم مع الجو العام لأنه جو مكهرب سريع النبض شديد الارتجاج³ .

والجو العام قد يكون الخطاب القصصي وأسلوب السرد الذي ورد به ، فالإيقاع هنا يتناسب والقصص وهو ما لا يخرج عن ما قال به القدماء أيضاً.

ففيما يخص بنية الصوت : يمكن إدراج المقاييس التالية :

الحلاوة والطلاوة والعذوبة واللين والملاسة والرطوبة والسلاسة.

وأيما تكن الحمولة الانطباعية للكثير من هذه المقاييس فإنها بالنظر إلى سياقها كانت تؤدي غرضها في توظيف الصوت المطلوب القادر على تشكيل مستوى فني من الكلام ولأن النص القرآني هو المتن والشاهد فإن وصف الصوت كان مرتبطاً بقراءته وتلاوته وتجويده مما أدى إلى بروز هذه المنظومة الصوتية المرتكزة أساساً على نطق الصوت وأدائه أو سماعه وتلقيه و تقوم على سهولة الصوت في أدائه وقربه في السماع. فالمقاييس تشير إلى الاستعمال والاستخدام الذي يجعل جملة من الأصوات قريبة سهلة وأخري لقلّة استخدامها تبدو ناتئة في الألفاظ و صعبة...

وإلى جانب مقاييس الصوت وردت مقاييس التوازنات وقد ركز فيها البحث على توازنات الأصوات وحكمتها جملة مقاييس تتفرع عن مقاييس الصوت مثل التلاؤم و الاقتزان ومقاييس كمية مثل

¹ المصدر نفسه، ص 216.

² سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، ص 89.

³ المرجع نفسه، ص 171 .

الاعتدال والقلّة وقد اتفق الدارسون على وجوب خضوع الصور التوازنية لأداء وظيفة المعنى أو الفائدة مما يجعل الصور وظيفة لا تزيينية.

ولأن النص القرآني كان متن البحث فقد برزت الفاصلة كأهم صور التوازن الصوتي وتم تناولها مقارنة بالسجع والقافية غالباً. فمن الدارسين من سلكها في مستواها باعتبارها دالة على حدود المفردات داخل النص كأبي وقفة للراحة، ومنهم من ميزها من منظور عقائدي بحيث ينتقي أن يكون في القرآن تصرف من غير فائدة بله أن يكون مشاكلاً للسجع أو قافية الشعر وكلاهما ومرتبطة بأحكام سلبية لا يصح معها إدراج الفاصلة في مستوى واحد معهما ولذلك اغتنت بالكثير من الأحكام أكثرها نقدي انطباعي متعلق بالسمع والتلقي ولكن مقياس التمكن يشير إلى قوة الإحكام في التأليف بحيث تشكل الفاصلة العنصر المطلوب موضعياً مما يستبعد التكلف أو الاجتلاب.¹

ومن هنا فإن الحروف وأصواتها يكمن إعجازها عند الرافعي في روح الانسجام المتولد من ترتيب أصواتها ومخارجها حسب طبيعة مقام الكلام كما ذكر أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي والانفعال سبب في توزيع الصوت وهذا ما يميّز به القرآن فربط الألفاظ والأصوات بالعواطف أمر لا نكاد نجد له أثراً بهذا الوضوح عند القدماء ممن تعرضوا لإعجاز القرآن قبله وإن كان ابن سنان الخفاجي تعامل مع اللغة باعتبارها أصواتاً معبرة عن النفس كأن الألفاظ عواطف تتغنى والجرجاني وإن اهتم بجانب المعنى فإنه لا يعطي أهمية كبرى للناحية الصوتية خلافاً للرافعي الذي رأى الإعجاز في جانبي الصوت والمعنى.²

3-4 الكلمات وحروفها

بين الرافعي في هذا البحث أن الكلمة هي " صوت النفس وهي أول الأصوات الثلاثة التي لا بد منها في تركيب النسق البليغ"³ ويقصد بالأصوات الثلاثة صوت النفس ، وصوت ، العقل وصوت الحس.

1 صوت النفس :

الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها على طريقة متساوقة تتسجم مع المعنى وهو ما يسمى في العصر الحديث بالإيحاء فتعتبر الكلمة الخطوة التي تسعى للمعنى الذي أعدت له.

2 صوت العقل :

¹ جمال حظري، المقاييس الأسلوبية، ص 60-61.

² انظر عز الدين بوبيش، حقيقة الإعجاز القرآني عند الرافعي، ص 20.

³ الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ص 220.

ينشأ من تركيب الكلمات في الجمل لأن هذا التركيب لا بد فيه من عمليات فكرية فنحن بحاجة ماسة إلى الفكر والعقل لندرك الصلة بين الكلمات في الجمل وهذان الصوتان قد عرفهما العرب من قبل . وهذا من لطائف التركيب في جملة الكلام ومن الوجوه البيانية التي يدار بها المعنى .

3 صوت الحس :

وهذا الذي لم يعرفه العرب قبل القرآن وهو تقدير الكلمات تقديرا محكما لمعانيها بحث لا تجد كلمة فضفاضة تزيد على المعنى الذي جاءت من أجله وأخرى لا تعبر عن المعنى تعبيراً تاماً وهذا ما لا نجده في شعر أو نثر فقد نجد البيت الواحد في القصيدة أو الجملة في الخطبة نعم النظر فيها ويمكن أن يطرح ويستغني عنه وليس كذلك القرآن الكريم¹.

وصوت الحس من دقة التصور المعنوي ونوع في تلوين الخطاب ووجه من الوجوه البيان مما يسوق إليها من طرف المعاني كأنها هي التي تريده وتحاول وأن يتصل أثرها بالكلام وبقدر ما يكون في الكلام البليغ من هذا الصوت بقدر ما يكون فيه من روح البلاغة . والصوت النفسي طبيعي في تركيب لغتهم . وصوت الفكر لا يعجزهم أن يستبينه في كثير من كلام بلغائهم وأما صوت الحس فقد خلت لغتهم من صريحه وانفرد به القرآن وأعجب شيء في أمر هذا الحس هو ذلك التأثير الذي لا تضيق به النفس ولا تنفر منه ولا تمل ولا تزال تطلب أكثر من حاجتها لما تجده من لذة من خلال أساليبه وطرقه في النظم والبيان في حين أنه يخلو ذلك في كلام البلغاء الذي قد لا يعدم في جماله قبحا وفي صوابه خطأ وهذا لا ينكر في كلامهم مهما امتدت به النفس واتسقت المعاني وتداخلت الأغراض بخلاف ما في القرآن .

ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية استحال أن تجد في تركيبه كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو حشو بحيث لو نزعته كلمة أو أديرت علي غير وجهها لاختل النظام وهو سر من إعجازه قد أحس به العرب ولا جرم أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزئ فيها لفظ عن لفظ فكان في نظم القرآن المعاني التي تلائم ألفاظ اللغة بحيث لا تند لفظة عن لفظة ولا تتخلف كلمة تأتي في أبلغ تصوير وأحسن نسق وأكثر رونقا وماء فصارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة . وقد تجد الكلمة ثقيلة لسبب من أسباب الثقل فلا تعذب ولا تصاغ فإذا هي في القرآن الكريم تستعمل استعمالاً دقيقاً فيزيل عنها ذلك الثقل كلفظة (النذر) فإن الضمة ثقيلة لتواليها على النون والذال فضلا عن الإحساس بنبوة هذا الحرف في اللسان خاصة وأنه جاء فاصلة لكلام فيكون في موضع الثقل ولكنك في القرآن لا تستنقل

¹ انظر حسن فضل عباس سناء فضل عباس، إعجاز القرآن ، ص 90.

فيه هذه اللفظة في قوله تعالى (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) فتأمل هذا التركيب وتدقّق مواقع الحروف فتجد القلقة في دال (لقد) وفي الطاء من (بطشتنا) فهذه الفتحات المتوالية في ما وراء الطاء إلى الواو (تماروا) مع الفصل بالمد كأنها تثقل لخفة التتابع إذا هي جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة خفيفا بعد وتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها وتجد الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) فلا تشعر بغلظ أو ثقل ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها والغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر) فما من حرف أو حركة إلا وأنت مصيب في ذلك عجباً في موقعها من نظم الجملة والكلمة وقد وردت ألفاظ هي أطول الكلام في عدد حروفها مما تحمل ثقلاً كقوله تعالى (ليستخلفنهم في الأرض) فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف ومع ذلك جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها فكأنك في النطق تنطق على أربعة مقاطع. وقوله (فسيكفيهم الله) فهي كلمة من تسعة أحرف وهي ثلاثة مقاطع تكررت فيها الياء والكاف وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها.

وفي القرآن لفظة غريبة وهي ثقيلة فلا تجدها في موقع إلا ثقلت وما حسن كلام قط وهي فيه وتلك هي كلمة (ضيّزي) في قوله تعالى (تلك إذا قسمة ضيّزي) فإن حسنها في نظم الكلام ظاهر فقد جاءت فاصلة من الفواصل، وهي في معرض الإنكار على العرب حين جعلوا الملائكة بنات لله فقال: (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيّزي) فكانت قرابة اللفظ أشد الأشياء ملائمة لغرابية هذه القسمة التي أنكرها وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة وخاصة في اللفظة التي تمكنت في موضعها من الفصل، والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام ولهم فيها نظائر في لغتهم وقد جاءت هذه الكلمة عقب غنيتين في "إذن" وقسمة أحدهما خفيفة والأخرى ثقيلة فكأنها ليست إلا مجاورة صوتية لتقطيع موسيقي.

إن الرافعي بذوقه الرفيع وحسه البلاغي أدرك ذلك التناسب في السياق ورأى أن غرابية اللفظة من غرابية تلك القسمة الجائرة الظالمة التي تجعل الملائكة والأصنام التي يعبدونها بنات لله لذا يتشكل في النفس عند نطقها أساساً بثقلها على اللسان ويغضها والنفور منها وفي هذه الآية تبدو دقة النظم والإيقاع جلية¹

و ما يزعم بعض النحاة من زيادة بعض الحروف فليس صائباً فمثلاً قوله تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم) فيظن من لا بصر له أن الميم زائدة ولكنها في الحقيقة لونا من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته فإن المراد تصوير أين النبي صلي الله عليه وسلم لقومه وأن

¹ محمد بولحية، الأسلوب البلاغي في القرآن الكريم، (سورة الكهف نموذجاً)، مذكورة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، تخصص البلاغة والأسلوبية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، السنة الجامعية 2009-2010، ص 109.

ذلك رحمة من الله فجاء هذا المد في (ما) وصفا لفظيا يؤكد معنى الين ويفخمه وفوق ذلك فإن لهجة النطق تشعر بالعطف والعناية ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها (رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعني وبنه الفكر على قيمة الرحمة فيه وذلك من بلاغة الآية وكذلك مثلا لفظة (الكوب) استعملت فيه مجموعة ولم تأت مفردة لأنه لا يتهياً فيها في النطق من الظهور والرقعة والانكشاف وحسن التناسب كاللفظ (أكواب) . وكذلك لفظ (الأرجاء) فلم تأت إلا مجموعة ومفردها الرجا أي الجانب وهي لا تحسن إلا أن تأتي بصيغة الجمع وعلى عكس لفظة (الأرض) فإنها لم ترد إلا مفردة ولو جاءت في صيغة الجمع لذهبت بسر الفصاحة فجاءت مقابلة لذكر السماوات في قوله تعالى (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) ولم يقل وسبع أراضي ولو جاءت لاختل النظم ولثقلت فتأمل ذلك . وكلفظة (الآجر) وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرهما نافر ومرادفها لفظ (القرمد) كلاهما استعمله العرب ولم يعرفوا غيرهما فجاء القرآن بأعذب عبارة وأرقها في قوله تعالى

(و قال فرعون يا أيها الملا ما علمت لكم من اله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فجعل لي صرحا) فانظر هل تجد في سر الفصاحة وروعة الإعجاز أبرع أو أعجب من هذا وتخيل لو انك جعلت مرادفها في مكانها فأوقد لي يا هامان على الآجر أو القرمد لكنها جاءت في نظم لا يملك القارئ إلا أن يشعر بشعور فينطلق لسانه ويقول آمنت بالله ربا وبمحمد صلي الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن معجزة . ثم تأمل في موقع القفلة من الدال في قوله (فأوقد) وما يتلوها من رقة اللام فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه .

هذا وما تجد في القرآن حرفا واحدا يشذ عن قاعدة نظمه المعجز . أفترى في الكلمات أبلغ ما يكون في نضمها وجهات سردها من تقديم اسم أو غيره وتأخيرها ولنظم حروفه ومكانه من النطق في الجملة أو لنكتة في المعنى . وتأمل قوله تعالى (وأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) فإنها خمسة أسماء أخفها في اللفظ الطوفان والجراد والدم وأثقلها القمل والضفادع (فقدم الطوفان لمكان المدين فيها حتى يستأنس اللسان بخفتها ثم الجراد وفيها كذلك مد وجاء بلفظين الشديدين بعدهما مبتدأ بأخفهما على اللسان لمكان الغنة في الميم ثم بلفظة (الدم) آخرا وهي أخف الخمسة وأقلها حروفا ليسرع فيها اللسان ويستقيم ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب ولو أنك قدمت أو أخرت لاعنتك موضعها في النطق ولا خرجت في اضطراب .¹

¹ انظر الرافعي ، تاريخ آداب العرب، ص 121 وما بعدها.

وهكذا " تعرف أن القرآن إنما أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيأة الوضع ولن تستوي هذه الطريقة إلا بكل ما فيه على جهته ووضعه فكل كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه"¹ إن إدراك العلاقة بين الكلمة المفردة من حيث وصفها في الجملة وما ينشأ عنها من معان أصلية أو ثانوية ووضع المفردات في نظام معين حسب ترتيب المعاني في النفس مع اختيار تلك المفردات ليلائم بعضها بعضا وتتنسب من حيث هي نظم مع ما من أجله صنع النظم كل ذلك جهة ضرورية يعلو بها الكلام ويتفاضل في الدلالة من حسن البيان"²

فهو يرى أن الإعجاز يكمن في مواقعها وهو بذلك يردّ على بعض من يرى أن القرآن يحتوي على حروف زائدة وليس الأمر كذلك فإن الحرف قد يفيد في المعنى وهو ما أكده الجرجاني في الدلائل.³

¹ المرجع نفسه ص 235.

² عبد العظيم المعطي، خصائص التعبير القرآني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، ص144

³ أنظر دلائل الإعجاز، ص 363-368.

الإعجاز في القرآن

2-1 تاريخ الإعجاز وجهود الأقدمين

إن كل علم له مقدمات والعلم يبني بعضه على بعض فيبدأ من مجرد ملاحظة أو مصطلح له معنى بسيط ثم يتطور المفهوم ويتوسع فيصبح نظرية مستقلة أو علماً قائماً بذاته مع تقدم الزمن وقد يمر بمراحل مع الدراسة والتمحيص والتقصي ليصل إلى مرحلة متقدمة تتضح فيه ملامحه ويتبين أمره وقد يمهّد الطريق لدراسات أخرى وعلوم متنوعة وكم من كتاب مر عليه حين من الدهر فلم يكن شيئاً مذكوراً وكثيراً من الكتب أخذت حظها من الدراسة ثم توقفت وكل كتاب غير كتاب الله قد يعتريه من النقص أو التحريف أو الخطأ أو السهو، ويبقى القرآن المعجزة الخالدة على مر الدهور والعصور ومنذ أكثر من أربعة عشر قرناً ومع تغير الزمن وتطور العلوم وقوة الحضارة وتقدم البشرية ورغم التخصص في الدراسات والتعمق فيها والتفوق والإضافات والتصحيحات والتصويبات التي طرأت على كثير من المؤلفات إلا أن البشرية بقيت إلي هذا رغم مضي القرون لم يجرؤ أحد أنه يتحدى القرآن . بل ولا نجد كتاباً تناوله بشيء مما ينقص من حقيقته .

قد مرّ تاريخ الإعجاز بأدوار ثلاثة:

الأول : دور اللمحات والإشارات : أي ما ألف في القرآن وما يتحدث عن معانيه ومن أوائل ما ألف كتابات " مجاز القرآن لأبي عبيدة "والثاني "معاني القرآن للفرّاء" وهما البذور الأولى في نهاية القرن الثاني للهجرة ومنهما الحديث عن أسلوب القرآن ونظمه والتشبيه والكناية . وقد بدأ النظام المعتزلي يتحدث عن عجز العرب على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ورد هذا العجز إلى أن الله صرف العرب على أن يأتوا بمثله وإلا فهم - في رأيه - قادرون على نظمه وأسلوبه ولكن يعجزون عما تصفه من أخبار وغيبيات والله صرف العرب أن يجرؤ على مجاراته و الإتيان بمثله . كما تكلم أيضاً الجاحظ عن بلاغة القرآن و نظمته في كتابه "البيان والتبيين" ورد على شيخه النظام بالقول بالصرفة و إن كانت موزعة في كتابه . وتكلم ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" و " غريب القرآن" فتحدث عن التشبيه والاستعارة والمجاز والتكرار والزيادة وردّه على المعتزلة وفيه بعض الإشارات البيانية وجاء الوسطي ليؤلف في إعجاز القرآن.

الثاني : دور الرسائل : وصلت رسالتان لإمامين متعاصرين من علماء القرن الرابع :

أحدهما من أئمة أهل السنة وهو أبو سليمان الخطابي ، والآخر من أئمة المعتزلة أبو عيسى الرماني كانتا الرسالتان الأساس لما كتب في الإعجاز فيما بعد. و وجوه الإعجاز عند الرماني سبعة - كما رأينا:-

- 1-ترك المعارضة.
 - 2-التحدي للكافة .
 - 3-الصرفة .
 - 4-البلاغة .
 - 5-الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية .
 - 6-نقض العادة .
 - 7-قياسه بكل معجزة .كما تحدث في البلاغة حيث استوعبت أكثر الصفحات. فرسالة الرماني تناولت البلاغة في نحو 530 ولم تأخذ الوجوه الأخرى إلا أربع صفات .
- أما الخطابي وكان من أوائل الذين كتبوا في الإعجاز ولا شك أنه تأثر بما كتبه الجاحظ من قبله، واطلع على ما كتبه أبو إسحاق النظام أحد أئمة المعتزلة الذي قال بأن الله تعالى قد صرف العرب عن معارضة كلام الله، وهذا أمر مقبول، إذا تضمن الإقرار بعظمة القرآن من حيث أسلوبه ونظمه ومعانيه، فإن الله تعالى قد تحدى العرب بالقرآن، وأعجز العرب عن الإتيان بمثله، والعجز هنا عجز مادي لتمييز القرآن وعظمة أسلوبه ودقة معانيه وعجز محاط بهالة من الرهبة والخشية تمثل في حفظ الله لهذا القرآن، وتعهده بحماية الدعوة وانتصار لرسوله، وفكرة الصرفة ليست مرفوضة من الأساس إذا جاءت في إطارها الصحيح المتمثل في رعاية الله لهذه الرسالة وتدعيم موقفها ومناصرة المسلمين، ولقد ثبت أن الله تعالى قد صرف عن المسلمين أخطارا ودفع عنهم أعداءهم، وشتت شملهم كلما اجتمعوا على الإسلام، وأغشى أبصارهم في مواقف كثيرة، وحمى القرآن من العبث ووجد به كلمة العرب اثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله وهم أهل الفصاحة والبلاغة وأصحاب الرياسة في الكلام والقول كما تعرض الخطابي لوجوه الإعجاز منها القول بالصرفة والأخبار بالغيب والحديث عن البلاغة والوجه المختار عند الخطابي يرجع إلى القرآن نفسه إلى أجناس الكلام وهي لا تخرج عن ثلاثة :

- 1-البليغ الرصيف الجزل
- 2-الفصيح القريب السهل.

3- الجائز الطلق الرسيل. وبين أن العرب ليس لهم معرفة تامة بجميع أنواع النظم - أي ترتيب الكلمات في الوضع بحيث تكون كل لفظة في محلها اللائق بها الخاص بها - ويرى الخطابي أن الكلام لا يدل له من عناصر ثلاث :

- لفظ حامل .
- معنى قائم.
- رباط لها ناظم .

وبهذا يكوم الخطابي من أوائل الذين أشاروا إلى قضية النظم بمعناها الدقيق وهو بذلك يرد على أنصار اللفظ وأنصار المعنى معا وتعرض الخطابي لوجه آخر من الوجوه الإعجاز غفل عنه كثير من الناس وذلك صنيعة في القلوب و تأثره في النفوس وهو ما عرف بالإعجاز الروحي وأطلق عليه بعضهم الإعجاز النفسي .

الدور الثالث : دور الكتب

1 - كتاب إعجاز القرآن للباقلاني :

تحدث في بداية كتابه عن المعجزة، وقرر أن القرآن هو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الكبرى، وهناك معجزات أخرى ومعجزة القرآن هي معجزة تحدي، وليس الأمر كذلك بالنسبة للمعجزات الأخرى.

وكان القاضي (الباقلاني) إمام عصره، وحجة زمانه، له مؤلفات كثيرة، ويدور معظمها حول العقيدة والدفاع عن مذهب الأشاعرة، وله أسلوب متميز يقوم على أساس الحوار والنقاش وكان قوي الحجة واسع الثقافة، وعاش في فترة زمنية كانت المذاهب الفكرية متعددة ومتنافسة، وألف كتابه (إعجاز القرآن) في إطار دفاعه عن قوام الدين وعماد التوحيد وبرهان صدق النبوة.

واعتبر أن القرآن فارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء بأنه يدل على نفسه بذاته، بخلاف الكتب الأخرى فلا تدل على نفسها إلا بأمر زائد عليها، لأن نظمها ليس معجزا. ويرجع الإعجاز في نظر القاضي الباقلاني إلى أمور ثلاثة :

- أ - إنباؤه عن الغيب.
 - ب - أمية الرسول صلى الله عليه وسلم.
 - ج - بداعة النظم.
- و ترجع بداعة النظم إلى أمور:

أولاً: مخالفته لما عهد العرب من أساليب السجع والشعر، وهذا ينفي عن القرآن هذه الأوصاف.
ثانياً: اشتماله على الفصاحة والبلاغة وعدم التفاوت في مستوى هذه الفصاحة في الآيات والسور مما يؤكد سمو النظم القرآني وعظمة أسلوبه وتتضح هذه الظاهرة في مقارنة النص القرآني بالنصوص العربية التي كان العرب يفخرون بها في مجال الشعر والنثر، وبعد المقارنة يبرز القرآن في أسلوبه واضح الإعجاز متميز الخصائص رائع النظم مشرق العبارة بليغا في اختيار مفرداته.
ثالثاً: بناء القرآن من الأحرف التي بني عليها كلام العرب وهذا من الإعجاز، فهذه الأحرف في فواتح السور دالة على معاني في الإعجاز، ولها آثار واضحة في الخطاب القرآني، وذات دلالات متعددة.

رابعاً: ابتعاد القرآن عن الألفاظ الوحشية المستكرهة والغريبة المستنكرة، واستخدام الكلمات السهلة والعبارات الواضحة، وهذا من الإعجاز.

وأكد الباقلاني أن القرآن منزل بلسان العرب ولكنه نزل على وزن يفارق سائر أوزان كلامهم ولو كان من بعض ما ألفوه من نظم وشعر لعرفوا أن صاحبه قد برع فيه وتقدم، ولكنه جاء من غير جنس كلامهم.¹

2- القاضي عبد الجبار الهمداني :

وهو من أئمة المعتزلة تحدث عن الإعجاز ويعتبر ما كتبه القاضي عبد الجبار امتدادا لما كتبه الباقلاني في الإعجاز، نظرا لأن القاضي عبد الجبار كان معاصرا للإمام الباقلاني، وكان مهتما بعلم الكلام، ويعتبر كتابه (المغني) من أبرز كتب علم الكلام، وجاء كتابه في الإعجاز في إطار دراساته الكلامية، وهو جزء من كتابه (المغني) ولهذا ظهرت آثار آرائه الكلامية في مجال دراسته للإعجاز. ويبدو أنه لا يميل إلى اعتبار الإعجاز في أوجه البلاغة وإنما يتمثل الإعجاز في جزالة اللفظ وحسن المعنى، ولا عبء بالقوالب والأشكال البلاغية، لأن المعول عليه في مجال الفصاحة هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فالصورة البلاغية إذا جاءت في موطنها مؤكدة جزالة الألفاظ مبينة جمال المعاني فهي من الإعجاز، وإذا لم تعبر عن هذه المعاني ولم تحقق هذه الغايات فقد تكون متكلفة سيئة الأثر، واستبعد القاضي عبد الجبار أن تكون الصرفة التي قال بها بعض علماء الكلام من أوجه الإعجاز، واعتبر العرب من أقدر الناس على معرفة ما يقع به التحدي، وقد تحداهم القرآن، وأدركوا معنى هذا التحدي، ولا يمكن لهذا التحدي أن يكون إلا في مجال الفصاحة والبيان وبين الفصاحة

¹ أنظر الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 54.

بأنها بجزالة اللفظ وحسن المعنى ولا تكون في الكلمات المفردة بل بضم هذه الكلمات بل بضم هذه الكلمات بعضها لبعض ويذكر اتجاهات ثلاث تظهر بها الفصاحة :

الجهة الأولى : اختيار الكلمة نفسها .

الجهة الثانية : حركة هذه الكلمة من حيث الإعراب.

الجهة الثالثة : موقع هذه الكلمة تقديمًا أو تأخيرًا تعريفًا أو تنكيرًا إلى غير ذلك من الأساليب ¹.

3 - عبد القاهر الجرجاني :

وتساءل الجرجاني في معرض حديثه عن إعجاز القرآن، ماذا أعجز العرب، هل أعجزهم لفظ القرآن أم أعجزهم معناه، لا شك أن ما أعجز العرب (هو تلاقي اللفظ والمعنى معاً)، فلا مجال للإعجاز في لفظ دون معناه، ولا مجال للإعجاز في معنى دون لفظ، فالإعجاز هو نتاج علاقة تكاملية بين اللفظ والمعنى، ولا يمكن تصور الفصاحة في إطار لفظ دون معنى، فالصورة البيانية هي نتاج لفظ معبر ومعنى يجسد الصورة، ويعطي للألفاظ أبعادها وصورها وجمالها، فاللفظة المفردة لا يمكن أن تكون معجزة، لأنها تظل قاتمة صامتة لا تنطق والمعنى العظيم هو الذي ينطق اللفظ ويجعل له لساناً معبراً، وعندما يتحدث أهل البيان عن الألفاظ الجميلة والألفاظ القلقة والمستكرهة، فإنهم لا يقصدون على وجه التأكيد مجرد اللفظ، فاللفظ لا يمكن وصفه بدقة إلا في إطار ملاءمته لمعناه المراد، وحسن انسجامه مع الألفاظ الأخرى في الجملة الواحدة بحيث يصبح الكلام معبراً أحسن تعبير عن معنى مراد. فالجرجاني لا ينكر أن يكون للألفاظ المفردة فصاحة... وهذه قضية غلط فيها كثير من الكاتبيين الذين ظنوا أن تركيز عبد القاهر على النظم أو المعنى وعدم إشادته بالألفاظ ظنوا ذلك إغفالا منه لأفضلية بعض الكلمات على بعض من حيث جرسها ووقعها في اللسان وعلى الأذن وليس الأمر كما ذهبوا إليه فالشيخ في أكثر من موضع من كتابه ينبه على هذه القضية ويشير إليها².

فبالرغم من اهتمام الجرجاني بالتلاؤم والانسجام والتوافق بين اللفظ والمعنى فإنه لا يتجاهل أهمية اللفظ، فاللفظ هو الأداة الأولى للتعبير، وهو الجانب الواضح في النظم، وهو معيار ضروري لجودة الكلام وفصاحته وبيانه، فاللفظة تجد مكانها المناسب والمعنى الدقيق يبحث عن لفظ معبر، ولولا ذلك اللفظ لما ظهرت المعاني ولما برزت الفصاحة، فاللفظة تقع في الجملة معبرة مجسدة مصورة مبينة ناطقة، وكأنها تصور المعنى تصويراً، وترسم الملامح بدقة، فتكون أكثر قدرة على التأثير، فلا يستطيع القارئ أو السامع إلا أن يجد فيها المعنى الذي يريد أو تحدثه هي عن المعنى المراد.

¹ انظر فضل حسن عباس، د: سناء فضل، إعجاز القرآن، ص 56-57.

² المرجع نفسه، ص 68-69.

وفي مثل هذه المواقف لا يملك الإنسان إلا أن يقف بإعجاب أمام اللفظة المعبرة عن المعنى، وينظر في النظم فيجد التلاؤم والتكافل والتعاهد بين اللفظة واللفظة، وكأن كل لفظة تقود إلى أخرى مجسدة الصورة البيانية، معبرة عن معنى إرادة الكلام ومن هنا بدأ الإعجاز، إعجاز لفظ معبر مختار وإعجاز معنى عظيم، ويبرز الإعجاز في تلاؤم عجيب بين ذلك النظم والمعنى، بحيث تمتد الأبصار شاخصة مترقبة يقظة، تتابع النظم الدقيق المعجز لو رأى العرب كلمة نابية لأمسكوا بها، ولما سمحوا لها بأن تفلت من أيديهم، واحتجوا بها على ما يريدون من الإساءة للقرآن، ولكنهم لم يجدوا في القرآن إلا كل ما يدعوهم للإعجاب به من حيث اللفظ والمعنى، ومن حيث التوافق والتلاؤم. وقال الجرجاني معبرا عن حسن الملاءمة بين اللفظ والمعنى : "وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها في النظم وحسن وملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وقد كان الناس قبله فريقين فريق شغف باللفظ ورأى أنه الأمر الذي يتفاضل به الكلام وفريق آخر رأى الفضيلة للمعنى وأن الألفاظ هي التي توضع فيها المعاني ويجيء عبد القاهر ويقف أمام هذين الفريقين ليبرز للناس نتيجة لهذه الدراسات كلها نظريته في النظم . " وفي ضوء هذا المقياس الجديد رفض ما قاله فريق من رجوع الميزة إلى اللفظ وما قاله آخرون من رجوع إلى المعنى وبين أنها لا ترجع إلا إلى النظم بهذا المفهوم الذي حدده. وحين تنتظر في معنى النظم الذي ذكره القاضي أبو بكر الباقلاني عن أصحابه الأشاعرة في جملة وجوه الإعجاز يتضح أنه نظم غير النظم المذكورة عند عبد القاهر وانه يعنى به طريقة الكلام وأسلوبه فهو مقابل للشعر والسجع والكلام المرسل وكان القرآن كما يقولون معجزا بنظمه أي بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطاهم فهو خارج عن العادة والمعجز بهذه الخصوصية التي ترجع إلى جملة القرآن وتحصل في جميعه.¹

4 - الإمام محمود بن عمر الزمخشري :

لقد كان فضل الله عظيما أن قيض لنا مثل الزمخشري يطبق التجربة تطبيقا عمليا تفصيليا في كتابه تفسير الكشاف. هضم نظرية عبد القاهر واستثمرها استثمارا تاما في تطبيقها . والذين جاءوا من

¹ محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية وآثرها في تفسير الدراسات البلاغية ، دار التضامن ، القاهرة ، ط 2 ، 1988 ص 125 .

بعدهما لم يزيديا شيئاً ذال بال إنما الذي ذكروه شروحا أو اختصارا أو نقلا قد تظهر عليه سمات التكلف.¹

إننا لا نجد كتابا تناوله أصحابه بالدرس والعناية واستخراج أسراره وشرحه كما نجد ذلك في كتاب الله تعالى حيث لم يتركوا وجها من وجوه الدراسة إلا وبحثوه ولم يتركوا شيئاً فيه إلا أحصوه فعدوا كلماته بل عدد حروفه. يقول محمد صالح الصديق " و لقد أدرك المسلمون عظمة كتاب ربهم وأدركوا بعمق أنه كتاب دين ودنيا معا فعلقوا عليه يتلونه حق تلاوته و يدرسونه ويستحلون غوامضه ويكشفون أسراره وحقايقه ويضعون الحياة علي ضوءه وينافسون في الغوص على جواهره وتنظيم العقود من لآلئه فأنشأوا حضارة إنسانية لم يعرف التاريخ نظيرا لها في مختلف عصوره حضارة قوامها المادة والروح وكتابها القرآن الخالد الذي يحمي الضمائر فلا تتحرف عن الحق ولا تميل عن العدل ويقيم بين بني البشر في تأملهم وسعيهم وحلهم وترحالهم وصلة الرحم وير التعاون ... وفيما يلي بعض تلك العلوم والفنون ننقلها عن الإسناد مصطفى صادق الرفاعي في كتابه إعجاز القرآن وقد نقلها بدوره عن أحد العلماء قال : فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه عددها و عدد كلماته وآياته و سوره و أحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجدياته . واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال والحروف الشاملة وغيرها وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال... حتى أن بعضهم أعرب مشكلة وبعضهم إعرابه كلمة كلمة واعتنى المؤرخون بألفاظه واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية فاستنبطوا منه وسمو هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منه معاني خطابه فرأت منه ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز .

وتكلموا في التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ

...

ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا و أول الأشياء وسموا ذلك بالتاريخ و القصص وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والميعاد والحشر والحساب... فصولا من المواعظ وأصولا من الزواجر.

و أخذ قوم مما في أية الموارد من ذكر السهام و أربابها وغير ذلك وعلم الفرائض.

¹ انظر فضل حسن عباس ، سناء فضل، إعجاز القرآن، ص 35 وما بعدها.

ونظر قوم ما فيه من الآيات الدالة علي الحكم الباهرة في الليل و النهار والشمس والقمر والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا علم المواقيت . ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب والإطناب والإيجاز وغير ذلك واستتبطوا منه المعاني و البديع وإذا كان الناهلون من هذا النبع الخالد قد استتبطوا هذه العلوم فإن الناهلين منه في العصور التي بعدهم قد استتبطوا منه ما لا يحصي من شتي العلوم والمعارف وخاصة في ميدان الآثار الكونية والظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن .

وخلاصة القول أن القرآن الكريم قد شغل العقول المفكرة والأقلام الكاتبة والألسنة الناطقة منذ نزوله إلى هذه الساعة وسيضل يشغلها ما بقيت الحياة .¹

2-2 من كتبوا في الإعجاز قديما وحديثا و مذاهبهم

إنه لا يمكن إحصاء كل من كتب في الإعجاز من القدماء والمحدثين ولعل كل من تكلم في التفسير أو تناول جانبا من الدراسات القرآنية لا شك وان يتطرق إلى مسألة الإعجاز أو يشير إليها وحسبك أن نذكر أهم الأعلام ممن تكلم عن الإعجاز في القديم والحديث على اختلاف في وجهة نظرهم في جانب الإعجاز .

1. أبو إسحاق النظام (ت 220 هـ) وهو من أشهر المعتزلة الذي يرى أن الإعجاز بالصرفة (أي أن لله صرف العرب عن معارضة القرآن). كما مر بنا .
2. الجاحظ (ت 255 هـ) من تلامذة النظام ألف كتابا من جهة نظمه وأسلوبه .
3. أبو الحسن الأشعري (ت 324 هـ) ولكن ضاعت مؤلفاته إلا ما كتب عنها
4. الإمام الطبري المفسر المعروف (ت 310 هـ) تكلم عن إعجاز وأفاض فيه في تفسير سورة البقرة .
5. القمي حسن (378 هـ) وكان يقول إن طبيعة هذه المعجزة يمكن أن تعرف ولا يمكن أن توصف.
6. أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت 306 هـ).. ألف كتابا في الإعجاز البياني يقول فيه " أن القرآن معجز بالنظم "

7. علي بن عيسى الرهاني اهتم بالإعجاز.. وذكره الرافعي وقال إنه الثالث الذي ناصر قضية الأسلوب والنظم بعد الجاحظ والواسطي.

8. الخطابي (ت 388 هـ) جمع فيه أقوالا مختلفة قيلت في الإعجاز ويدل هذا الجمع على معرفة واسعة عميقة بجمال الكلام وبالبلاغة الحقيقية وأساليب البيان العربي الرفيعة .وقد رأيناه سابقا.

¹ محمد صالح الصديق، من روائع الإعجاز، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، 2005، ص 107 وما بعدها .

9. أبو الهلال العسكري شغل بالإعجاز في كتاب لم يخصصه لفكرة الإعجاز وإنما أعده لدراسة فنون البلاغة .. وهو يرى انه معجز ببلاغته و فصاحته .
10. الشريف المرتضى (ت 463 هـ) ألف كتابا في الإعجاز لكنه ضاع كتابه يقول بقول النظام بالصرفة ويخالفه في أن العرب سلبوا مقوماتها وعند النظام أن العرب صرفوا عن المعارضة مع قدرتهم عليها .
11. أبو النصر هبة الله الشيرازي الملقب بالمؤيد في الدين .. ومما يستخلص من كلامه عنه انه قائم على المعنى أكثر منه على الألفاظ.
12. القاضي أبو بكر الباقلاني (ت 403 هـ) ألف كتابه المشهور "إعجاز القرآن" وتعمق فيه وتوسع وتعرض فيه بعمق وإسهاب للنظريات التي قبلت قبلة في الإعجاز ونقدها بعقل بصير وفكر حر ثاقب. وقد فصلنا في آرائه كما سبق .
13. ابن سنان الخفاجي حلي المتوفى سنة (466 هـ) اهتم بقضية الإعجاز وبحثها وألف فيها كتابه سماه (سر الفصاحة) وخلاصة رأيه انه لا يرى فصاحة القرآن كافية للبرهان على إعجازه ويقول بالصرفة عن طريق المرتضى كما يرى أن بعض القرآن أفصح من بعض .
14. عبد القاهر الجرجاني .. ألف فيه كاتيين هاميين سمي أحدهما " دلائل الإعجاز" ويسمى الآخر "أسرار البلاغة" . ويقوم الإعجاز في نظره على المعاني كما انه يقول الإعجاز يدرك بالذوق الأدبي الفني بشيء من الشعر الديني. وقد سبق ذكر ذلك.
15. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ) ويذهب إلى أن في القرآن جميع العلوم الدينية والدنيوية وهذا وجه من وجوه الإعجاز .
16. القاضي عياض (ت 538 هـ) وذهب إلى أن إعجاز القرآن يقوم على الإعجاز والبلاغة والأسلوب الغريب والإخبار بالمغيبات والإخبار عن الأمم الماضية
17. الزمخشري (ت 538 هـ) والإعجاز عنده يقوم على المعاني من تعريف و تكبير وتقديم وتأخير ثم على ما يتصل بعلم البيان .
18. ابن عطية (ت 542 هـ) ورأيه في الإعجاز يقوم على نظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه وذلك أن الله أحاط بكل شيء وأحاط بالكلام كله
- 19- أبو علي الفضل بن الحسين الطبرسي الطوسي (ت 548 هـ) أحد علماء الشيعة الإمامية.. ويمكن استخلاص رأيه من نصوص الكاتب (مجمع البيان في تفسير القرآن" وهو يقوم على البلاغة والإخبار بالمغيبات واحتواء العلوم وجوده المضموم والانسجام والخلو من التناقض .

20 - ابن رشد الفيلسوف المعروف (ت 595 هـ) قال عنه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي "فيلسوف الإسلام القاضي أبي الوليد بن رشد كلام حسن في آخر كتابه (فصل المقال) لم نر مثله لأحد من العلماء بين فيه كيف احتوى القرآن الكريم على طرق التعليم المنطقية بجملها تصورا وتصديقا وقد جعل الفيلسوف ذلك من إعجازه"

21. فخر الدين الرازي (ت 606هـ) من قوله " القرآن لا يخلو إما أن يقال انه كان بالغا في الفصاحة إلى حد الإعجاز أو لم يكن كذلك فإن كان الأول ثبت انه معجز وان كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة فعدم إثباتهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق للعادة فكان ذلك معجزا فثبت أن القرآن معجزا على جميع الوجوه"¹

22. أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (626 هـ) ألف كتابه (مفتاح العلوم) في البلاغة .. يقول إن القرآن معجز بالنظم وان إعجازه قد يدرك بالذوق وطول خدمة البلاغة وممارسة كلام البلغاء.

23. ابن العربي الصوفي (ت 628 هـ.) كان ينقل آراء من سبقوه للإعجاز.

24 . علي بن أبي علي الآمدي (ت 631 هـ) ويتلخص رأيه في الإعجاز في أنه بنظمه العجيب ونسقه البديع وإخباره بالغيب.

25 - نصر الدين محمد الطوسي (ت 672 هـ) ذكر في كتابه (تلخيص المحصل) ما يراه غيره قديما وحديثا في الإعجاز، الفصاحة أو الصرفة دون أن يؤيد رأيا على رأي.

26. حازم القرطاجي (ت 684هـ) الإعجاز يتمثل في استمرار الفصاحة. والبلاغة فيه من حيث جميع أنحاءها في جميعه استمرار لا يقدر عليه أحد من البشر فكلام العرب مهما علت فصاحتهم وبلاغتهم فان الفصاحة لا تستمر أنحاءه.

27 . القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الابن عمرين محمد بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت 685هـ) تحدث عن الإعجاز في تفسيره ، ويتبين أنه يأخذ آراء سابقه ومعاصريه بوجوه الفصاحة والبلاغة وحسن النظم والبيان وقوة المعنى وعمقه .

28. ابن تيمية (ت 728 هـ) يرى أن القرآن معجز ببيانه وبعلمه معا أي بما احتواه من العلوم المختلفة الدينية والدنيوية .

29. الزمكاني (ت 727 هـ) ذكر السيوطي رأيه في أن الإعجاز يعود إلى التأليف الخاص به.

¹ انظر قوله هذا من كتاب "من روائع الإعجاز لمحمد صالح الصديق، ص 104.

30. الخطيب القزويني (ت 739هـ) تكلم عن البلاغة في العربية وأنها تكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أسرارها.
31. ابن جزى الكلبي (ت 739 هـ) يرى أن إعجاز القرآن بأسلوبه.
32. يحيى بن حمزة العلوي (ت 749هـ) يتبين انه متأثر بعبد القاهر الجرجاني وأنه يرى أن الفضل في النظم للمعاني لا للألفاظ.
33. الأصبهاني (ت 749هـ) ذهب أن الإعجاز يدركه الأديب بالذوق وهذا إنما يتأتى لمن مارس فنون الأدب والبلاغة وله نصيب من الشعر الديني.
34. ابن القيم الجوزية (ت 751هـ).. ذهب أن القرآن معجز لإيجازه وحسن تركيبه وبديع ترتيب ألفاظه واتساقه العجيب وفصل خطابه وبما احتواه من علم وحكمة وأسرار مذهلة للعقول .
35. الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير (ت 774هـ) ويتلخص رأيه فيه لان القرآن معجز ببلاغته ومضمونه وأثره في النفس ولا يقول بالصرفة.
36. الشاطبي (ت 790هـ) ينكر التفسير العلمي الذي يزعم أن في القرآن كل العلوم.
37. بدر الدين الزركشي (ت 794 هـ) صاحب البرهان في علوم القرآن .. وقد ساق أقوال ما سبقوه وبديل كلامه على انه يؤمن بوجود وجوه متعددة للإعجاز.
38. ابن خلدون (ت 808هـ) ذهب إلى أن القرآن معجز ببلاغته النادرة وفصاحته الفذة.. "فيما يختص بالألفاظ في اتساقها وجودة رصفها وتركيبها "
39. الفيروز أبادي (ت 817هـ) لم يحدد رأيه في الإعجاز وإنما أورد كلام غيره عنه وقدم بعض الإيضاحات عن صور التحدي.
40. المراكشي بقية إلى سنة 837هـ. يرى أن القرآن معجز ببلاغته المتفوقة التي أعجزت بلغاء العرب وأخرستهم.
41. معين الدين بن صفى الدين (ت 905هـ) له تفكير وجيز ذهب فيه إلى أن القرآن معجز ببلاغته الفذة وإخباره عن المغيبات.
42. الإمام السيوطي صاحب الإتقان في علوم القرآن (ت 911 هـ) ويلاحظ انه جامع لأقوال سبقوه وليس له رأي خاص .
43. زكريا النصارى (ت 926 هـ) تعرض للإعجاز بكلمة وجيزة مقتضية يفهم منها أن القرآن معجز ببلاغته وحسن سبكه ونظمه في كتابه " فتح الرحمان بكشف ما يتبين في القرآن " .

- 44 . ابن كمال باشا (ت 938 هـ) يستشف من كلامه أن إعجاز القرآن ليس ببلاغته وإنما بالصرفة .
- 45 . الشيخ زادة القونوي (ت 950 هـ) وخلاصة رأيه أن القرآن معجز بأسلوبه ومضمونه معا .
- 46 . أبو السعود (ت 951 هـ) وارتأى أن إعجازه بأسلوبه ومضمونه .
- 47 . طاش كبرى زادة . اشتهر بهذا الاسم وهو عصام الدين أبو الخير بن مصطفى .. تحدث عن القرآن بأنه مخرس بفصاحته لأساطين البلاغة و مصاقع الخطباء ومتميز عن سائر الكتب بحلاوة تلاوته وعذوبة موسيقاه .
- 48 . محمد الشربيني (ت 977 هـ) تحدث عن إعجاز القرآن وقال انه في الشكل والمضمون معا .
- 49 . شهاب الدين الخفاجي (ت 977 هـ) حدد رأيه في الإعجاز بأنه في فصاحته وبلاغته وحسن نمطه وتناسقه ولا يقول بالصرفة .
- 50 . ثمن الدين محمد الضرير المالكي الإسكندري توفي سنة (1149 هـ) .. له كتاب في التفسير يثير العجب والدهشة لأنه منظوم على بحر الرجز يقع في عشر مجلدات .. وقرر أن القرآن معجز ببلاغته وما يتعلق بها وبمضمونه .
- 51 . سليمان العجيلي الشافعي الأزهري المعروف بالجملي (ت 1204 هـ) وهو ينقل آراء من سبقوه ويرى الإعجاز في الفصاحة والإخبار بالمغيبات .
- 52 . الإمام الشوكاني المحدث المفسر (ت 1250 هـ) يقوم رأيه في الإعجاز على البلاغة وفخامة المعاني وينفى الصرفة .
- 53 . الإمام الألوسي (ت 1270 هـ) ويفهم من كلامه انه يقول بإعجاز القرآن العلمي الغيبي .
- 54 . صديق القنوجي البخاري (ت 1307 هـ) وذكر أن القرآن معجز ببلاغته ومضمونه أيضا .
- 55 - محمد توفيق صديق ويركز على الحقائق العلمية المختلفة .
- 56 - طنطاوي جوهرى في نظره يقوم الإعجاز على العلوم والنظريات المختلفة التي أشار إليها القرآن ولم يكشفها إلا العلم في العصر الحديث .
- 57 - رشيد رضا (ت 1335 هـ) يتبين من تفسيره أن الإعجاز عنده يقوم على البلاغة والعلم معا .
- 58 - عبد الحميد بن باديس (ت 1359 هـ) ويبين أن الإعجاز يقوم على بلاغته وناحيته العلمية أيضا .
- 59 - إبراهيم بيوض (ت 1401 هـ) ويظهر من كلام الشيخ في آيات التحدي أن الإعجاز يعود إلى الأسلوب والمضمون معا .

- 60- محمد رشاد خليفة اهتم في بحث الإعجاز العددي ووصل إلى حقائق إعجازية مذهلة وهناك من اعترض على هذه النتائج وردّها وشكك فيها.
- 61- محمد متولي الشعراوي (ت 1998م) ويتضح من كلامه أن الإعجاز عنده علمي وغبيي وأشار في بعض كتبه إلى الإعجاز البلاغي .
- 62- جمال الدين القاسمي (ت 1332هـ) ويقوم الإعجاز عنده على البلاغة وحسن الصياغة وعذوية الأسلوب وعمق المعني وقوته .
- 63- عبد الرحمان الكواكبي (ت 1320هـ) يقول بالإعجاز العلمي ووجوه أخرى كالبلاغة والإخبار عن المغيبات والخلو من التناقض .
- 64- مصطفى صادق الرافعي (ت 1937م) خلاصة رأيه أن القرآن معجز بموسيقاه وبروحه التي تخاطب الروح وتناغي الوجدان وألفاظه ونظمه .
- 65- سيد قطب (ت 1967م) يظهر من خلال تفسيره أن القرآن معجز ببلاغته وأسلوبه كما أنه معجز بمضمونه وهدفه وكونه منهجا كاملا للحياة .
- 66- الدكتور زكي مبارك (ت 1952 م) تحدث عن الإعجاز في كتابه "الموازنة بين الشعراء " وبين أن القرآن أكبر معجزة للرسول صلي الله عليه وسلم وهو المعجزة التي يعتز بها العقل .
- 67- محمد عبد العظيم الزرقاني ويرى أن القرآن معجز بنغمته الصوتية وإرضائه للخاصة والعامة وإرضائه للعقل والعاطفة وجمعه بين الإجمال والبيان .
- 68- محمد البشير الإبراهيمي (ت 1965م) قال في مقال في مجلة الشهاب " إننا نعد من إعجاز القرآن في البلاغة ما هو شائع في جميع آياته من الدقة المتناهية في تحديد المعاني وتصوير الحقائق وتنزيل الألفاظ في مراتبها ... والتزواج بين الصفتين والصفات حتى كأنهما صفة واحدة كالقوي الأمين والغني الحميد والحفيظ العليم ..."
- 69- مصطفى المراغي يرى أن الإعجاز يتمثل في بلاغته وفصاحته ومضمونه وإخباره عن الغيبات وكثيرا ما يقف أمام المعجزات العلمية .
- 70- محمد الرزمي الشرقاوي (ت 1945م) من علماء الأزهر يرى أن القرآن معجز بصياغته البديعة وجمال تنسيقه الفذ وتأثيره في النفوس وتوافق إشارته العلمية مع مقررات العلم الحديث.
- 71- محمد الغزالي (ت 1996م) تحدث عن الإعجاز البياني والعلمي والنفسي.
- 72- محمد سعيد رمضان البوطي (ت 2013م) ويمكن تحديد رأيه في الإعجاز في أسلوبه البديع المشرق وتشريعه الدقيق المتكامل وأسراره العلمية المثيرة المدهشة .

73- أحمد حسن الزيات (ت1968م) قال في كتابه تاريخ الأدب العربي " تناحرت الأدلة وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز وإنما الخلاف في سبب إعجازه فمن قائل أنه شرف الغرض وتنوع القصة والإخبار بالغيب ومن قائل انه الفصاحة الرائعة والمذهب الواضح والأسلوب الموثق ونحن إلى هذا الرأي أميل ."

74- الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء له محاضرة في إعجاز القرآن في ملتقى الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة 1981 قال إن نواحي إعجاز القرآن متعددة متشعبة فمن أخبار بمغيبات ومن أحوال الأمم والأنبياء إلى إخبار عن أمور ذكر القرآن أنها سوف تقع إلى شواهد من آيات الكون ونواميسه ثم نظر الباحثون من زوايا مختلفة أبرزها زاوية البيان وزاوية المضمون "...¹

75- الدكتور شكري فيصل له رأى في الإعجاز في محاضرة ألقاها في ملتقى الفكر الإسلامي سنة 1981² يرى الدكتور شكري فيصل أن الإعجاز يتناول جوانب متعددة ويشمل كل الآراء قديمها وحديثها وان وجوه الإعجاز متعددة ومتكاملة.³

2-3 الأسس التي بنيت عليها نظرية النظم

أولا : التقديم والتأخير:

لقد قدم الجرجاني هذا الباب على الأبواب الأخرى كالحديث مثلا عن الحذف أو الوصل والفصل لأنه فيما يبدو أن الجرجاني يفترض أن إنتاج الكلام يتم في الذهن أولا على هيئة تركيبية عن طريق تصور هيئة الكلام التي يراد من خلالها إيصال الفكرة ليكون وقع الكلام بخلاف الجاحظ الذي يوفي الأهمية أولا للفظ أي اختيار اللفظ الفصح أولا وهو أهم الأركان عنده و أما الجرجاني فقد جعل مسألة الترتيب الذهني والتركيب للكلام المسألة الأولى ولذلك جعلها في بداية تركيبية الأبواب وبعد ذلك تأتي مرتبة الحذف أو الفصل أو الوصل و التقديم أو التأخير هنا يولى فيه العناية للبناء النحوي ويراد به الاهتمام والعناية وربما لا يقصد منها فائدة بلاغية⁴.

1-تقديم اسم على آخر أو تأخيره عنه. وينقسم إلى تعليق المعرفة بالمعرفة (زيد المنطلق) و(المنطلق زيد) وفي هذا يتم تغيير حكم كل منهما فزيد في الجملة الأولى مبتدأ و المنطلق خبر، وأصبح العكس في الجملة الثانية و الفرق كبير بين الابتدائي و الأخبار، و هو فرق لم يكن ليوحد ضمن إمكانات اللغة لولا فائدة ما . وهذه الفائدة العناية و الاهتمام . و الثاني تعلق المعرفة بالنكرة

¹ انظر محمد صالح الصديق، من روائع الإعجاز، ص 181 .

² المرجع نفسه، ص 120 وما بعدها

³ انظر محاضراته في كتاب من روائع الإعجاز، ص 165.

⁴ انظر بيان شاكر جمعة ، ومحمد حمد شبيب، قراءة في نظرية النظم ، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية ،المجلد الأول ،العدد الأول 2009 ، ص 256-

كقولنا " زيد منطلق " و"منطلق زيد" وهو تقديم النكرة فمن غير الممكن الابتداء بالنكرة منطلق فلا يمكن جعلها مبتدأ ، ويجب أن تظل خبرا فزيد منطلق مبتدأ ومنطلق خبر له. و زيد في الجملة الثانية مبتدأ مؤخر و ظل منطلق خبر له مقدم و تقديم زيد يكون عند الاهتمام بأن زيد هو المنطلق كما إذا سألت أحدهم من المنطلق ؟ فنقول زيد منطلق . وإذا سألنا منطلق زيد ؟ نقول نعم منطلق زيد وهذا يعني الاهتمام بأحد الاسمين المعرفتين أو بواحد من النكرة أو المعرفة فينبغي العناية وتقديم الأهم فلا يمكن أن نجيب على السؤال من منطلق ؟ فنجيب منطلق زيد ولا نجيب على السؤال الآخر أن منطلق زيد ؟ نقول زيد منطلق لأننا لم نفهم السؤال وهذا يعني أن ترتب الأذهان على أساس الأهمية و العناية وهو روح نظريه النظم التي وضعها .

2- تقديم الفعل أو الاسم وتأخيرهما : وهو ينقسم إلى أقسام :

أ- بحسب أنواع الاسم :

فإذا كان الاسم معرفة فتقديم الاسم عليه أو تقديمه هو على الاسم يبرز العناية و الاهتمام فإذا قلنا " زيد ينطلق" فزيد مبتدأ و الجملة الفعلية خبر له ، وإذا قلنا (ينطلق زيد) وقد جعلنا الجملة فعلها ينطلق و فاعلها زيد والجملة الأولى أن نوضح أن زيد هو من يكون المنطلق بعد ثبوت الفعل وتحققنا منه فالفعل غير مهم كأهمية زيد و في الجملة الثانية (ينطلق زيد) نريد أن نثبت فعل الانطلاق لا الكتابة أو الرماية لزيد لذلك استعملت الجملة الفعلية . وإذا كان الاسم نكرة فلا يجوز بقاء النكرة على حالها فيجب تعريفها أو تخصيصها بالوصل أو الإضافة فإذا قلنا الرجل ينطلق أو ينطلق الرجل فإننا نولي اهتماما بالفعل أو الاسم و عند وصفه (رجل طويل ينطلق) (ينطلق رجل طويل) فنبحث هنا عن علاقة الاسم بصفته وهي أيضا لا تتجاوز معنى الاهتمام والعناية ثم نبحث عن العلاقة بين الفعل و النكرة ، فتقديم النكرة على الفعل فهذا يعني أن نجعل النكرة وصفها مبتدأ وفي الثانية نجعل الفعل في جملة فعلية و تكون النكرة وصفها فاعلا له و في الحالتين نقدم الأولى بالاهتمام و نأخذ الثاني لأننا لا نريد الحديث عنه أو لا نعطيه نفس الأهمية التي يملكها الجزء المقدم .

ب - بحسب أنواع الفعل:

الأفعال كلها الماضي والحاضر والمستقبل لها نفس الأهمية إذا تقدمت وعدم الاهتمام إذا تأخرت فإذا قلنا زيد انطلق فإننا نوليه أهمية دون غيره من المنطلقين إذا أردنا الحديث عنه والأخبار عن حالة وإذا قلنا (انطلق عمرو) قدمنا الفعل لأننا نريد الحديث عن الانطلاق الواقع من عمرو لا عن عمرو نفسه حتى و إن أردنا أن نحدث عنه فهو في مرتبة ثانية وكذلك في الاستفهام (أتنتطلق اليوم) لا تساوي (اليوم تنطلق) ففي الأولى نسأل عن الانطلاق بينما في الثانية نسأل عن اليوم الذي يكون فيه

الانطلاق. وحين تقول (أنت قلت هذا الشعر) فكأنك تتكر على الشخص أن يقول شعرا كهذا ولا تتكر الشعر نفسه. بينما إذا قلت (أقلت هذا الشعر) فإنك تسأل عن القول لا القائل وفي الاستقبال قد يأخذ منحي آخر فقولك (أنت تفعل هذا) تريد أن الفعل حقيق ولا ينبغي لمثله أن يفعله وإذا قلت (أتفعل هذا وأنت في هذه المكانة تريد أن الشخص لا يمكن أن يفعل ذلك لعلو منزلته وأن غيره قد يقع منه لا هو وقد يكون لتحقير الفاعل (أهو يفعل الخير).

ج - الحرف وتعلقه بالاسم والفعل.

الحرف يدخل إما على جملة فعلية أو على جملة اسمية فلا يدخل على اسم أو فعل منفرد والحرف له أثر في المعنى حين يسبق ببعض الأسماء أو الأفعال و دخوله على الأسماء له أثره فإذا قلنا مثلا (جاء زيد وعمرو) فالواو وهنا للعطف دون ترتيب أو تراخ و(ثم) للترتيب والتراخي فهي واسطة بين الاسم الأول والثاني فينتبع الإعراب الثاني الإعراب رفعا أو نصبا أو جرا.

وقد يقع الحرف بين الفعل والاسم فقولنا (مررت بزيد) فمهمة الحرف هنا إيصال الفعل إلى الاسم لأن هذا الفعل لا يباشر الاسم مباشرة الحرف له فكأنك تريد أن تقول : كنت سائرا ومررت بزيد و أنك لم تذهب إليه مباشرة . وكذلك واو المعية فلا تحمل معنى سوى المعية (سرت والشمس) أو أداة (إلا) فهي لاستثناء وتعين الفعل على النصب.

و قد يتصدر الحرف الكلام فيتعلق بجملة اسمية كالنفي والاستفهام فإذا قلت (ما زيد قائم) نفيت قيام زيد. وإذا قلت (لم قائم زيد) أي تسأل عن سبب حصول القيام . أما إذا قلت لم زيد قائم) فأنت تسأل عن سبب قيام زيد دون غيره. وقد تفيد هذه الحروف معنى الإنكار أو التوبيخ والتفريع والتنبيه كقولك (هل زيد جبان؟) مستقهما ومنكرا أو (هل الملك جبان؟) التنبيه ورفع الهمة.

وكذلك الحروف المشبه بالفعل (كأن زيدا أسد) تريد المبالغة بالتشبيه .

وقد يتعلق بجملة فعلية ويتصدرها فيحصل في الشرط أو التمني أو الترجي والنداء فإذا قلت (إن جاءني زيد أكرمته) تجعل زيدا شرطا في الإكرام ومثله في النداء (يا عبد الله) بمعنى أدعوا عبد الله. و(يا) تنبيه وفيه قيام معنى الفعل في النفس وكأنه واسطة بين الفعل المقدر والاسم وهو الذي أدى إلى النصب أو يدخل حرف الاستفهام على فعل مباشرة لقصد التفريع أو التنبيه أو الإنكار و

غيرها (كيف يأتي زيد؟) (ما يأكل زيد)¹

ثانيا : الحذف :

¹ انظر دلائل الإعجاز، ص 86 وما بعدها.

وهو الركن الثاني من أركان نظرية النظم : إذا كان التقديم والتأخير بنية ذهنية قائمة في نفس الكاتب أو المتكلم في الكتابة أو الكلام المعنى إلى المستمع فإن الحذف عملية تالية يتم فيها تعديل البنية وتوجيهها لتكون أبلغ .

وهنا أيضا يقسم الجرجاني هذا الأساس إلى ثلاثة : حذف الاسم أو حذف الفعل وحذف الحرف والجملة.

أ- حذف الاسم وذكره : وهو باب دقيق المسالك لطيف المأخذ عجيب الأمر ليس بالسرر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تتطرق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين¹.

تحدث عن حذف أنواع من الأسماء كالمبتدأ والخبر والمفعول به . وربما اقتصر على ذلك أوضح وتكفي في القياس عليها من أنواع المحذوفات الأخرى . وهو يريد جمالية الكلام دون أن تشعر بأن هناك حذف تتكلف معرفته. ويضرب لذلك أمثلة كقوله تعالى "سورة أنزلناها" أي هذه سورة أنزلناها وحذف المبتدأ الدليل يدل عليه ويحذف الخبر أيضا لدليل يدل عليه كقوله تعالى "أكلها دائم وظلها" أي وظلها دائم. وقد يحذف الخبر وجوبا في مواضع كأن يأتي جواب لولا كقوله تعالى (لولا أنتم لكن مؤمنين) أي لولا أنتم صدقتمونا لكنا مؤمنين. وقبل جواب القسم كقوله تعالى "لعمرك أنهم لفي سكرتهم يعمهون" أي لعمرك يميني إنهم... وغيرها. وهذه أمثلة تتحقق فيها جمالية بسيطة ولكنها لا تقارن بالحذف الجائز المذكور سابقا ويأتي بعد ذلك حذف الفاعل نحو ما قام إلا هند أي ما قام أحد إلا هند. وكقوله تعالى (أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة) أي إطعامه يتيما فحذف الفاعل بعد المصدر أو البناء للمجهول كقوله تعالى(قضى الأمر) أي قضى الله الأمر. ونجد حذف المفعول كقولنا فلان يحل ويعقد" وحذف المفعول قد يكون ظاهرا خال من الصنعة كقولنا "أصغيت إليه" أي إليه أذني وما تدخله الصنعة كقول البحري يمدح المعتز

شجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر و يسمع واع

أي يرى مبصر محاسنه ويسمع واع أخباره.

وهناك أنواع أخرى لم تذكر ويكفي الإشارة والتبنيه لبعضها و إلا فإن الحذف يقع في المضاف إليه، واسم إن، وحذف الضمير وغيرها .

ب- حذف الفعل : ولم يذكره الجرجاني واكتفي بحذف المبتدأ والمفعول به. و حذف الفعل قد يكون وجوبا أو جوازا كقولك "سورة الواقعة" بفتح سورة جوابا لمن سأل ماذا حفظت اليوم يكون التقدير

¹ المرجع نفسه، ص 112.

أحفظت سورة الواقعة وهذا الحذف جوازا ووجوبا كقوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان) والإعراب : السماء مفعول به لفعل محذوف وجوبا تقديره "رفع السماء رفعها"¹
ج: حذف الحرف : ولم يذكره الجرجاني كقوله تعالى : (ألا إن ثمودا كفروا ربهم) أي بربهم وكقول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

أي و رب ليل وهذه سمة بلاغية لطيفة .

ثالثا: الفروق :

يتحدث في هذا الباب عن فروق عدة في مواضع مختلفة ويضرب لذلك أمثلة يوضح بها الفروق تحدث عن الفروق في الخبر وفي وجوه الشرط والجزاء والفروق في الحال والفرق في الحروف وفي دخولها على الجمل نشير إلى أهمها فالكتاب يحتوي جزءا كبيرا منه في هذا الركن فتكلم عن الخبر الذي يكون جزءا من الجملة لا تتم إلا به كأن يخبر عن شخص ما بأنه كذا أو يفعل كذا فقصدنا ليس ذكر الشخص فقط بل الإخبار بفعله أيضا .وخبر ليس جزءا من الجملة إنما متم لها كقولنا (جاء زيد راكبا) نخبر عن مجيء زيد وهو الجزء الأساسي .والثاني ليس جزءا ولكنه محتمل لها . وقولنا زيد في الدار فإنك تقدر زيد مستقر في الدار أو استقر في الدار .فتقدر اسم فاعل أو فعلا (استقر) وتحدث عن الفروق في الخبر والحال وضرب لذلك عدة أمثلة فيقول: الفرق واضح بين (يركض زيد) وبين (الراكض زيد) ففي الأولى تخبر عن زيد بأنه يقع منه التجدد والركض الاستمرار بينما الثانية نقرر بأن الراكض زيد ولا يهمننا كونه ما زال يركض أم لا . كذلك الفرق بين الجمل التالية : زيد منطلق ، زيد المنطلق ، المنطلق زيد ، زيد هو المنطلق، المنطلق هو زيد ففي جملة زيد منطلق نحن نريد إخبار أحد ما بأن زيدا منطلق وهو لا يعلم بذلك الخبر جملة وتفصيلا أما إذا قلنا زيد المنطلق فنحن نريد أن نفهم شخصا ما بأن انطلقا وقع لكنه لا يعرف من المنطلق هل هو زيد أم عمر فنخبره بالتحديد من هو . وجملة المنطلق زيد فنخبر شخصا ما يرى انطلقا ولكنه لا يعرف من هو المنطلق فنخبره بأنه زيد. أما الجملتين الأخيرتين نضيف الضمير (هو) للتأكيد على دعوى الانطلاق أو على دعوى انطلاق زيد فيكون الكلام يقينا راسخا .وتحدث عن بعض الأفعال وزمانها وتحديدها و استمرارها و يضرب لذلك أمثلة : فما الفرق بين (يركض زيد) و بين (ركض زيد) الفعل يحتوي على ركنين أساسيين هما ركنا الحدث و الزمن فالماضي نخبر عن وقوع حدث ما في زمن ماضي وإذا كان الفعل مضارعا للحال فإننا نخبر عن وقوع حدث ما يزال مستمرا. و إذا كان الفعل

¹ أنظر أحمد ناصر ناصر ، النحو الميسر، ألفا للنشر والتوزيع، الهرم، الجيزة، مصر 2010 ، ط 1، ص 214.

للاستقبال فإننا نتحدث عن فعل سوف يقع و يأخذ حيزاً زمنياً أي الفعل في جميع الأحوال لا بد أن يبتدئ بزمن وينتهي بزمن آخر وما عدا الفعل الدال على الحال أو الوقت الحاضر فإن الماضي يدل على ابتداء حدث في زمن ثم انتهى والاستقبال يدل على أن حدثاً سيقع ثم ينتهي . والمضارع نتكلم عن استمرار الحدث ونجهل أو لا نهتم لمسألة انتهائه فكل الأفعال تفيد تحديداً واستمراراً في زمن ما سواء كان ماضياً أم حاضراً أم مستقبلاً واعتبر الجرجاني المضارع أساساً للفعلين الآخرين لأن المضارع لا نتحدث سوى عن الاستمرار الموجود في الفعلين الباقيين ونلغي البداية والنهاية. ثم يضع الفرق بين جملة التي يكون فعلها وفاعلها خبراً أو تكون مؤلفة من فعل وفاعل فقط فقولنا (زيد يركض) هو غير قولنا (يركض زيد) فالأولى تصلح لإجابة من يسأل : من يركض؟ بينما الثانية تصلح لمن سأل : ماذا يفعل زيد أو هل يركض زيد فالأولى تفيد لتقرير الفاعل بأنه يفعل فعلاً والثانية تخبرنا بأن زيدا يقع منه الفعل . كذلك الفرق في الفعل الناقص كقولنا (كان زيد يركض) و(كان يركض زيد) فالأولى تصلح للجواب عن سؤال من كان يركض؟ بينما الثانية تصلح للجواب عن سؤال : ماذا كان يفعل زيد فالأولى تريد الإخبار بأن زيدا دون غيره يقوم بالركض بينما الثانية الأخبار بأن زيدا كان يقوم بالركض دون غيره من الأفعال وكذلك الجمل التي تحتوى على حروف تدخلها فروقات فهناك فرق بين قولنا (في الدار زيد) و(زيد في الدار) ذلك أن الأولى تصلح لجواب السائل من في الدار؟ بينما الثانية لجواب السائل : أين زيد؟¹

رابعاً : الفصل والوصل :

وهو الركن الثاني والأخير الذي يتعلق بالجملة في نظرية النظم وعملية إنشاء الكلام . فبعد أن يكمل الحديث عن اختيار الجمل و وضعها في موضعها و علاقتها فيما بينها وتساويها و فيما إذا كانت متشابهة أو متناقضة أو مختلفة يأتي لعملية الفعل و الوصل على تلك الأسس و هكذا ينتقل مرحلياً من التقديم و التأخير دخل الجملة ويتم الحذف داخلها و ينتقل إلى الفروق لاختبار جملة دون أخرى يصل أخيراً نحو الفصل و الوصل لربط الجمل فيما بينها ، وهو هنا لا يبحث عن الربط الجمل فحسب و هذا قد يخرج من الجمل النحوية إلى الذوق البلاغي والفني فيتحدث أيضاً عن الكلمات قال: " واعلم أن سبيلنا أن ننظر إلى فائدة العطف في المفرد ثم نعود إلى الجملة فننظر فيها ونتحرى حالها"²

و قد يقع الفصل و الوصل بين الجمل الفعلية والجمل الاسمية و بين شبه الجمل ففي الأسماء نجد العطف الذي يفيد الاشتراك في الإعراب والحكم كقولنا (مررت برجل خلقه حسن و خلقه قبيح)

¹ دلائل الإعجاز، ص 132 وما بعدها .

² المرجع السابق، ص 171.

فالجملـة الأولى (خلقه حسن) في محل جر لأنها صفة لرجل المجرور بحرف الجر فإذا كانت الجملة الأولى بهذه الصورة فهي كالمفرد في الإعراب (خلقه حسن) صفة فيجب أن نشرك الجملة الثانية وخلقه قبيح في حكم الجملة الأولى فهذه جمل لها موقع من الإعراب وهناك جمل لها موقع من الإعراب وبالرغم أنها معطوفة لا نحكم على الثانية بالاشتراك في حكم الإعراب مع الأولى كقولنا (زيد قائم وعمرو قاعد) قالوا و للعطف جاءت لتجمع بين جملتين من مستوى آخر وهو أنه لا يمكن الوصل بين جملتين كهاتين إلا إذا كان ثمة ما يوجب الجمع بينهما وذلك أن بين زيد وعمرو تناظرا لا يمكن أن نجمع بين (خرجت اليوم من داري وأفضل بيت قالته العرب في الرثاء هو كذا). فلا مناسبة بين الجملتين ولا يمكن الجمع بين جملتين لا توجد بينهما مشابهة فلا يمكن القول "زيد طويل وعمرو طويل وعمرو شاعر) بل (زيد طويل وعمرو قصير) أما الفصل في الجمل فيجب أن تكون الثانية كالصفة للموصوف أو كالتأكيد للمؤكد فالجملة التي تليها يجب الفصل بينهما لأنه لا يمكن أن نشرك المعنى الأول في المعنى الثاني وإلا نقع في التكرار والإعادة فإذا فصلنا نكون بصدد الشرح والتوضيح فقوله تعالى "ذلك الكتاب لا ريب فيه" فالجملة الثانية مؤكدة للأولى (ذلك الكتاب) فاختر الفصل لأن الثانية كالصفة الأولى.

وفي بعض المواضع ترى بأن العطف واجب وعند التدقيق تجد الفصل أكد كقولك: يقولون بأبني جبان و أنا الذي قتلتهم يوم كذا وكذا.وقولك: يقولون بأبني جبان أنا الذي قتلتهم يوم كذا وكذا. فالجملة الأولى كانت إخبارا عن المتكلم والثانية حكاية عنهم . فالفصل أكد مع أنه يجوز أن تقول (يقولون بأبني جبان وأنا الذي قتلتهم يوم كذا وكذا) والمسألة هنا لا تتبع الأسس النحوية بل تتعدي إلى الأسس الذوقية .

و قد يقع الترادف بين جملة اسمية و آخر فعلية كقولنا (زيد كانت جيد فن البلاغة) فهي مؤكدة للأولى فإجادة فن البلاغة شرط في الكاتب الجيد فهي كالجزء من الجملة الأولى أما إذا كانت الثانية أعم من الاسمية الأولى فلا يمكن إلا الوصل فنقول (زيد كاتب جيد ويلم بأشكال الكتابة) أما إذا كانت الثانية غير مؤكدة للأولى ولا جزء منها فيجب الوصل (زيد كاتب جيد ويجيد فن الخياطة)لأنه ليس ثمة علاقة بين الكتابة والخياطة ولا يمكن أن نجمع ونصل بين جملتين لا تتحدثان عن الشخص نفسه ولا مناسبة بين الخبرين كأن نقول (زيد كاتب جيد ويجيد عمرو في الخياطة) لا في حالة الوصل ولا في حالة الفصل. ومن هنا كان إعراب هذه الواو حالية لا عاطفة.

وكذلك الوصل في الفعل يكون على شرط المناسبة فيمكن أن نقول (زيد يضر وينفع وخالد يعطي ويمنع) فنريد بهذا الوصل أن نقول بأن فلانا يجمع بين فعلين معا ويقوم بهما معا .

وإذا تصدرت الجملة الفعلية وتليها جملة اسمية كقولنا (يجيد زيد الركض إنه رياضي ماهر) ينبغي عندئذ الفصل وذلك أن الجملة الثانية أعم من الأولى فالرياضي الجيد يشمل القدرة على الركض لذا وجب الفصل كأننا نقول يجيد زيد الركض كيف لا وهو رياضي ماهر حتى نثبت الجزء بالكل الذي يعرفه الناس وإذا لم تكن هناك علاقة بين الجملتين فلا يمكن الفصل ولا الوصل كأن نقول (يجيد زيد السباحة ورأسه كبير) بينما يمكن القول (يجيد زيد السباحة ويدها مضمومتان) لأن اليد ينبغي فتحها عند السباحة وفيها معنى الاشتراك.

وكذلك في شبه الجملة فقولنا (زيد على السطح جعلنا شبه الجملة في موضع رفع على الخبرية وقولنا (قام زيد على سطح) جعلنا شبه الجملة في موضع نصب على المفعولية للفعل قام ، أي أننا نعلق شبه الجملة بالاسم في حالة كونها خبرا وبالفعل في حالة كونها مفعولا به . ويواصل الجرجاني في هذا السياق في الفصل والوصل وينتهي إلى قاعدة ذهبية للفصل والوصل فيقول " ترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية والعطف يكون لما هو واسطة بين الأمرين وكان في حال بين الحالين "1 وهذه أهم الأسس التي اعتمد عليها وما بقي من مصطلحات أشار إليها في كتابه كالعطف والإحالة والتكرار وغيرها هي تكميلات لهذه الأسس والقواعد .²

2-4 النظم ومعاني النحو:

يوضح الجرجاني علاقة النظم بالنحو فيقول "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله"³ والجرجاني يرجع صحة أو فساد النظم إلى معاني النحو " فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بغير هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له"⁴ ويضرب لذلك مثلا في توخي معاني النحو في قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل

¹ المرجع السابق، ص170.

² انظر بيان شاكر جمعة مهند حمد شبيب ، قراءة في نظرية النظم، ص 279 وما بعدها.

³ الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 64.

⁴ المرجع نفسه ، ص 65.

هذا الترتيب تعلم منه أن الشاعر توخاه في كون "تبك" جوابا للأمر وكون "من" معدية له إلى "ذكرى" وكون "ذكرى" مضافة إلى "حبيب" ...وجملة الأمر أن لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة إن لم يقدم فيه ما قدم ولم يؤخر ما أخر لم تحصل تلك الصورة وتلك الصنعة ، ولنتصور كما قال الجرجاني أن لا يقصد الصنعة ولا التقديم أو التأخير فيقول الشاعر :

من ذكرى حبيب و منزل قفا نبك

فيذهب بجمال النظم والتركيب . ومثل توخي معاني النحو إذا قلت "ضرب زيد عمرا يوم الجمعة تأديبا له" يقصد إلى قولك ضرب فيجعله خبرا عن زيد ويجعل الضرب الذي أخبر بوقوعه منه واقعا على عمرو ويجعل يوم الجمعة زمانه الذي وقع فيه ويجعل التأديب الذي فعل الضرب من أجله فيقول: ضرب زيد عمرا تأديبا له . وهذا كما ترى هو توخي معاني النحو فيما بين معاني هذه الكلم ولو أنك فرضت أن لا تتوخي في ضرب أن يجعله خبرا عن زيد وفي عمرو مفعولا به لضرب وفي يوم الجمعة أن تجعله زمانا لهذا الضرب وفي التأديب أن تجعله غرض زيد في فعل الضرب ما تصور في عقل ولا وقع في وهم أن تكون مرتبا لهذا الكلم.¹

ويضرب مثلا واضحا للنظم واللفظ في قول الشاعر:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

فترى الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ، وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف فأزل كل منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل : سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره فانظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة وكيف تعدم أريحيته التي كانت وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها.²

إن قصد المتكلم يتحكم في إنتاج الجمل ومنه ينتج النص اللغوي ومن خلال النص يعرف قصد المتكلم فلم يكن الترتيب إلا سبيلا للتصور ومعينا على الإفهام فتأليف الألفاظ راجع حتما إلى تأليف الدلالات النحوية الذي يشكل صورة واقعية أو واقعا ماديا لتأليف المعاني في النفس ... فليس نظم الألفاظ في الحقيقة إلا نظما للمعاني إذ نظم الظاهر يرجع إلى قصد نظم غير ظاهر ومن ثم يكون الوصول إلى مرام نظم المعاني أشد عسرا من مرام نظام الألفاظ فليس وصف اللفظ بمنفصل عن وصف المعنى سواء قلنا فصاحة أو نظما فالمزية أو الفضل يتقاسمها اللفظ والمعنى معا.³

¹ أنظر المرجع نفسه ، ص310

² أنظر المرجع السابق، ص 78.

³ أنظر سعيد حسن البحيري ، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة مطبعة العمرانية للأوقاف، ص 184.

فالكلام يتم من خلال الألفاظ والمعاني من المتكلم ويراعي المتكلم ترتيب المعاني في النفس أولاً "وهو التصور الذهني القائم على التقليد لمأثور ومستعمل كلام العرب"¹ وهو تواليها في النطق فقط وليس نظماً بمقتضى المعنى ولا الناظم مقتفي في ذلك رسماً من العقل اقتضي النحو في نظمه ويمكن أن يسمى هذا بمستوي التفكير اللغوي وهذا المستوى الأول لا معنى ولا فصاحة في اللفظ المفرد فلا بد من المستوى الثاني وهو التعليق بين الأصوات والألفاظ وما تؤديه من معاني نظم الحروف وهو تواليها في النطق بمقتضى عن معنى ويمكن أن يسمى بمستوي معاني الكلم المفردة فلا معنى له دون المستوى الثالث كما قال الجرجاني : ف "الألفاظ لم توضع لتعرف بها معانيها في أنفسها ولكن لأن يظم بعضها إلى بعض فيعرف في ما بينها علم شريف"² والألفاظ هي نتيجة المعنى الذي يقصده المتكلم فينظم على شاكلته ألفاظاً فلا يتصور أن يقتصد المتكلم معنى كلمة دون أن يريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى والقصد هنا أن يفهم السامع شيئاً لا يعلمه ولا يقصد المتكلم اللفظ المفردة فإذا قلت خرج زيد لا لتعلمه معنى خرج في اللغة ومعنى زيد لذا أنت لا تتنطق الاسم دون اسم آخر أو فعل أو قدرت على شيء أو تذكر الفعل أيضاً منفرداً وإلا كان هذا صوتاً وأي صوت آخر تصوت به سواء.³

بينت الدكتورة سناء حميد البياتي معنى النظم عند الجرجاني والعمود الأساسي الذي بنيت عليه نظرية النظم والمحور الذي تدور عليه وهو توحيد معاني الشعر " وقال لمن يبحث عن دليل إعجاز القرآن الكريم بأن الإعجاز في نظمه وليس النظم شيئاً غير توحي معاني النحو" فإذا ثبت الآن أن لاشك ولا مزيه في أن النظم ليس شيئاً غير توحي معاني النحو وإحكامه في ما بين معاني الكلم...وأما الأعمدة الأخرى التي بنيت عليها نظرية النظم فقد عبرت عنها المصطلحات الآتية :

1 . التعليق

2 . الترتيب

3 . البناء

4 . الوجوه والفروق .

وسأقتل هنا بعض ما ذكره الجرجاني عن هذه المصطلحات " معلوم أن ليس النظم سوى التعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض"

¹ دلالات الإعجاز ، ص 330.

² أم الخير بن الصديق، النظرية النحوية عند الجرجاني وتطبيقها في المقررات اللغوية التعليمية لأقسام السنة الثانية ثانوي آداب، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة. قسم اللغة العربية و آدابها، ص 95

³ انظر دلالات الإعجاز ص 109 .

" واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك "

" وإذا عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيها فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا تجد زيادة بعدها ¹ وذكرت الدكتورة أن مقصود الجرجاني من معاني النحو هو المعاني الذهنية التي تتولد في فكر المتكلم عند نظم الجمل تلك المعاني التي تنشأ عن تحديد العلاقات بين الأشياء المعبر عنها بالكلم " وهذا يتطلب التوغل بالذهن لكي تتحسس ما يجري في أذهاننا عند نظم الجمل وهذا ما فعلته فقد توغلت في ذهني كي أتحمس ما يجري فيه عند نظم الجمل وبعد تفكير عميق اكتشفت ما يأتي :

هناك نوعان من العمل: النوع الأول: الجمل التي تمر بمرحلتين عند نظمها:

المرحلة الأولى :

وهي مرحلة تحديد العلاقات بين الأشياء تلك العلاقات التي يعبر عن كل منها بطريقة معينة فعندما يدرك الفكر أن العلاقة بين الشيئين مثلا علاقة إسناد ينجز بومضة من ومضاته هذا المعنى الذهني الذي يحدد العلاقة بين الشيئين و يقوم أيضا بربط الكلمتين المعبرتين عن هذين الشيئين بطريقة خاصة متعارف عليها بين أبناء اللغة الواحدة وهنا الأمر ينطبق على المعاني الذهنية كلها إذ أنها تتجز في هذه المرحلة بومضات ذهنية ... ففي الفكر يتم انجاز (المعاني الذهنية) وفي

النظم هي (معاني النحو) وفي الفكر يتم تحديد العلاقات بين الأشياء وفي النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض وبناء بعضها على بعض... فمعاني النحو إذا : هي معاني ذهنية ينجزها ذهن المتكلم عند نظم الجملة تربط بين الكلم وتحدد العلاقة فيما بينها ويتم انجازها في هذه المرحلة هي مراحل التفكير عند النظم.

المرحة الثانية : هي مرحلة تحديد الألفاظ المناسبة وفيها يتم اختيار كلمة معينة من بين حشد الكلمات الموجودة في الذهن فيتم تحديد الكلمة المناسبة للتعبير عن ذلك المعنى الذهني أي المعنى النحوي و إذا كان المتكلم شاعرا أو خطيبا أو مما يعبرون بطريقة مؤثرة فانه يتميز في كونه يختار كلمة أو عبارة يراها انسب من غيرها وأفضل منها في تأدية ذلك المعنى فيحقق في هذا النوع غرضا أسلوبيا أو فنيا مقصودا...

¹ سناء حميد البياتي ، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم . دار وائل للنشر عمان ط 1 س 2003 ص 13 - 14

إنّ مرور ذهن المتكلم بالمرحلتين السابقتين : مرحلة تحديد العلاقات بين الأشياء أي تحديد المعاني المسماة بـ (معاني النحو) أو بمرحلة تحديد الألفاظ المناسبة ينتج عنه نوع من الجمل يسمى بـ (الجملة الخبرية المنبثقة) .

ولتوضيح النوع الأول من الجمل نحاول أن نفكر ونتحسس ما يجري في الذهن عند النطق بجملة: (أفلح المؤمن) نحس أن الفكرة نشأت وهي أننا نريد أن نسند شيئاً إلى شيء فالإسناد في هذه الجملة أول عملية ذهنية تنشأ بومضة من ومضات ذهن المتكلم لتحديد العلاقة بين الشئيين ثم بعد ذلك أي في المرحلة الذهنية اللاحقة يتم تحديد الألفاظ المناسبة للإسناد المطلوب فيتحدد الفعل (أفلح) من بين عدد كبير من الأفعال المخزونة في الذهن وكذلك تتحدد كلمة (المؤمن) من بين عدد كبير من الأسماء الموجودة في الذهن فيخرج الإسناد بهاتين الكلمتين المحددتين المختارتين وهذا يعني أن التفكير بالإسناد كان أولاً ثم تلاه التفكير بتعيين الكلمات واختيارها فكانت الكلمة الأولى المختارة هنا (أفلح) بدلاً من أيقن أو نجح أو ربح أو غيرها من الأفعال والكلمة الثانية المختارة هي (المؤمن) بدلاً من العابد أو الصادق أو الصالح أو غيرها من الأسماء وقد خرجت هاتان الكلمتان بعد أن حدد العلاقة بينهما وربطهما معنى مستقر في الذهن هو: الإسناد.

النوع الثاني : الجمل التي تمر في ذهن المتكلم بثلاث مراحل عند نظمها :

المرحلة الأولى : وهي مرحلة تحديد المفهوم العام أي المعنى العام الذي يحدد جو الفكرة فتشير إلى ذلك الجو الأداة التي تصدر الجملة كأداة النفي أو الاستفسار أو الاستفسار أو الشرط أو غيرها فيتحدد بذلك أسلوب الجملة .

المرحلة الثانية :

مرحلة حصر المفهوم العام أي المعنى العام بشيء وتعليقه أو تسليطه على شيء كحصر النفي مثلاً بالإسناد أو بمعنى آخر من معاني النحو وتعليقه به وتسلطه في الوقت ذاته على الطرف المجاور للأداة فمجاورة كلمة معينة للأداة يعني تسليط المعنى العام عليها على وجه الخصوص وأنها هي التي يفكر المتكلم بنفيها أو الاستفهام عنها بصورة خاصة وينبغي أن نلاحظ أن هذه المرحلة المشتركة في الدراسة النحوية بين نوعين من الجمل، فالنظم في أية جملة إما أن يبدأ منها وإما أن يمر بها .

المرحلة الثالثة:

وهي مرحلة حصر الأشياء في مدلولاتها ونعني بذلك تحديد الألفاظ المختارة المناسبة للفكرة ...

تأخذ مثلا جملة : (هل ساعد محمد الفقير؟ نحس أولا أن هنالك جوا عاما معيناً يسيطر على الفكرة منذ نشوئها وهو جو الاستفهام وجادة أداة الاستفهام لهل) لتعبر عن هذا الجو العام ، أي المعنى العام الذي يكشف الفكرة ويهيمن عليها. يلي ذلك تحديد الاستفهام في كونه استفهاما عن شيء وهذا الشيء هو الإسناد معبر عنه بالمساعدة المسندة إلى محمد ثم تعلق بالإسناد معنى ذهني آخر هو التخصيص المعبر عنه بـ (الفقير) فصار الاستفهام بـ (هل) عن المساعدة المسندة إلى محمد والمختصة بـ (الفقير) ...ويمكننا أن نتصور أنه إذا أصيب دماغ إنسان ما إصابة معينة تعطلت بسببها منطقة الفهم ونشوء الفكرة فانه عند ذلك لا يستطيع تحديد العلاقات بين الأشياء أي لا يربط بين الأشياء ويختار الكلمات المناسبة لان منطقة الفهم ونشوء الفكرة عنده متعطلة.. وكل الذي يمكن أن يسمع من هذا المصاب ألفاظ متناثرة مستعملة أو غير مستعملة أي هذيان أما إذا تعطلت عند المصاب المنطقة الخاصة بمرحلة تحليل المعاني الذهنية.. فان ذلك سيؤدي حتما لان ينطق المصاب بألفاظ مستعملة أو معروفة ولكن لا رابطة بينها أي من غير معان ذهنية تربطها كما في هذا المثال (المهد العلم من اطلب للحد) فالفكرة موجودة في ذهن المصاب والألفاظ كل واحدة منها صحيح ولكن ليس ثمة تحديد للعلاقات لذلك لا نجد رابطا ربط بعض الكلمات ببعض ولو كانت منطقة تحديد العلاقات والربط سليمة لقال: (اطلب العلم من مهد إلى الحد) .

أما إذا تعطلت عند المصاب المنطقة الخاصة بمرحلة اختيار الكلمات فالتعطل عند ذلك قد يكون تعطلا كلياً يشل المنطقة بأكملها فلا يستطيع المصاب في مثل هذه الحالة أن يتكلم ... أما إذا كان التعطل جزئياً فان المتكلم يمكن أن يقول مثلا (ركف النارق) بدلا من (ركض السارق) فهو هنا يفهم أي أن منطقة نشوء الفكرة سليمة ويستطيع أن يحدد العلاقة بين الشئيين ولكنه لم يختر الكلمتين المناسبيتين المستعملتين لهذا الإسناد المعبر عن الفكرة...

والنتيجة التي أريد أن أصل إليها هي : أن يقول القائل (المهد العلم من اطلب للحد) لا يسمى (نظم) على الرغم من أن الكلمات صحيحة ومستعملة وذلك لعدم وجود (المعاني الذهنية) التي تحدد العلاقات بين الكلمات وتربطها ببعضها فإلسلك الجامع مفقود. وكذلك أن قول القائل (ركف النارق) لا يسمى نظما على الرغم من وجود الإسناد ولو قال (ركض السارق) لكان نظما يتوفر فيه الإسناد الذي يربط بين الكلمتين .. وفي ضوء ما ذكرنا فان نظم الجملة التي يراد منها التفاهم ينبغي أن يتوفر له بعد نشوء الفكرة ما يأتي :

1- المعاني الذهنية أي (معاني النحو) التي تحدد العلاقات بين الأشياء .

2- ما تتطلبه المعاني الذهنية من استخدام صحيح لأقسام الكلم المستعملة في اللغة وبهذا يتحقق نظام الجملة في الكلام الذي غرضه التفاهم.¹

" وأولى عبد القاهر الجرجاني هذه المسألة أهمية كبيرة من خلال مؤلفاته (الرسالة الشافية ، دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة) وذهب إلى أن لا ميزة للمفردات في حد ذاتها لأن الناس تواضعت عليها هكذا ، وإنما ميزتها حين تضم إلى أخواتها من المفردات ، وقد شبه النظم بالتأليف والصياغة والبناء والشوي ، ورأى أن أثناء التأليف يسبق المعنى اللفظ على عكس القراءة أو السماع حيث يكون اللفظ هو السابق . وأنزل هذا الدارس الكلام ثلاثة منازل :

لفظ مستقل بجماله واستغنى بحسنه دون أن يكون للنظم حساب فيه .

ونظم اعتمد على ترتيب المعاني وتأخي الأفكار دون أن يسانده التأنق في اللفظ .

وكلام حوى الحسن من طرفيه فجمع إلى جمال اللفظ وإشراف العبارة تساوق المعنى وتلاحم الفكرة وهذا الأخير هو الذي يبحث عنه ويطلب التفاضل فيه بين البلاء ومن جهته يكون الإعجاز ، وذهب إلى أن التفاضل يكون في الكلام الذي يقبل التحرير أو التبديل ، وليس في الكلام الذي له مدلول واحد. ويبدو أن الجرجاني يفصل بين صورتين من صور الحقائق الفنية . فهناك صور فنية غنية كلما رجعت إليها اكتشفت شيئاً جديداً ، وصور ضحلة هزيلة تأخذ كل ما فيها بنظرة واحدة.²

ومثل هذا البحث الذي يكون موضوعه علاقة الجمل المعترضة وجلاء هذه العلاقة حتى يظهر اتخاذ الجمل والتتام بعضها ببعض وتخصيصه البحث بعلم النظم وأنه لا يطبق هذا البحث إلا من

ارتاض بهذا العلم وتدريب على ذوق هذا النمط من التعبير الذي تتداخل جملة وتقوم بينها روابط قوية خفية وعلاقات وثيقة غامضة.. والكلام المنتظم هو الذي تتضح معانيه ويتقف أسلوبه عن مدلوله والكلام المتناثر هو الذي تختفي مدلولاته ولا يقف الذهن منها على شيء ومهما تتابع الجمل لا يستقيم عنده معنى متسق³

فالجرجاني يرجع المزية لمعاني النحو وترابط فيما بينها ولو كان للفظ وحده لحسن أبداً أو لا يحسن أبداً وشبه ذلك بالنسيج وقوله : النسيج والتأليف والصياغة والبناء " فإن التركيب للجملة والنص لا يكون بناء لفظياً قبل أن يكون بناء للمعنى إذ كيف تدخل الأصوات في اللغة إذا لم تدل على معنى؟ ثم إن هذا المعنى لا يكون مفرداً بل تكتمل أهليته ويظهر سحره بضمه إلى جنب أخيه في تناسق

¹ المرجع السابق 15 و26.

² محمد تحريشي، النقد والإعجاز، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2004 ، ص 24.

³ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، ص 239.

فكري وهنا تكون الكلمة مستحسنة، وأخرى مستغربة فعلى حسن تركيب الشاعر أو اللغوي في كلامه من معان يجذب بعضها بعضا، وينسجها بعناية تفوق أي كلامٍ عادي تكون الفصاحة ، وعليه كان اختيار المتكلم للذكر والحذف، والتقديم والتأخير، وترك الصفة وإقرارها، وإظهار الفاعل واستتاره، يقول الإمام: "إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون أولا في النطق فهو يريد أنه ليس من الممكن أن تكون الألفاظ هي المقصودة قبل المعاني باللفظ والترتيب، فهذا وهم لا يتخيل؛ إذ كيف يمكن أن تكون مفكرا في الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافا وأحوالا إذا عرفت أن حقها أن تنظم على وجه كذا؟ يقول محمد مندور "منهج عبد القاهر يستند إلى نظرية في اللغة أرى فيها ويرى معي كل من يمعن النظر أنها تتماشى مع ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء حيث يقرر ما يقرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات"¹

¹ محمد مندور، في الميزان الجديد، نهضة مصر ، القاهرة، 2004م، ص 185.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء و شكر

إلى الرحمة المهداة ، و النعمة المسداة و السراج المنير:

محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة و أزكى التسليم ، أشرفت الأرض برسالته نورا و ابتهاجا ،
و دخل الناس به في دين الله أفواجا.

إلى الأب الحاني ، و الأم الرؤوم ، و روحهما الطاهرة ،

"رب ارحمهما كما ربياني صغيرا" ، و أسكنهما دار الخلد برحمتك و غفرانك.

أتوجه بالشكر لله أولا أن يسر لنا إتمام هذه المذكرة (و ما بكم من نعمة فمن الله)

فلك الحمد يا رب حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه.

أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذنا الفاضل عبد القادر العربي ، الذي أمدنا بتوجيهه و نصحه ، له منّا كل
تقدير و احترام ، سائلين المولى عز و جل له التوفيق و السداد.

أتوجه بالشكر إلى كل الأساتذة الذين رافقتهم طوال المدة الدراسية مقرين في حقهم بالتقصير كيف و قد
قيل: "من علمني حرفا صرت له عبدا . و من علمني حرفين باعني و اشتراني بدرهمين".

أتوجه بالشكر إلى زوجتي التي أعانتني على كتابة هذه المذكرة فجزاها الله

كل خير.

أتوجه بالشكر إلى كل الطلبة، و إخواني و أخواتي، و أخص بالذكر منهم الأخ سديرة فواز على اهتمامه
بمذكرتي لتخرج إلى النور في ثوب قشيب رغم انشغاله و امتحاناته و ترحاله لم يبخل علينا بمد يد العون
فجزاه الله خيرا.

إلى كل هؤلاء أهدي مذكرتي.

و لله الحمد أولا و آخرا.

جاء الرسول -صلى الله عليه وسلم- بمعجزة القرآن و هو النبي الأمي الذي لم يكن شاعرا و لا عرف أنه كان خطيبا، جاء إلى قوم لا يشق لهم غبار في الفصاحة والبيان، طالبهم أن يأتوا بمثله تأليفا و نظما و إحكاما فعجزوا و قالوا: إن هي إلا أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا .

كانت كلماته و آياته قد خرجت عما عهده العرب، من منثور كلامهم و شعرهم و سجعهم، و قد أحاطوا بلغتهم علما وفهما. و بقي على مرّ السنين يتحدى الناس أجمعين، رغم تقدمهم في كل مجالات العلم والمعرفة. وإذا كان الناس اليوم لا يشعرون ببلاغة القرآن و فصاحته و تأليفه العجيب، ذلك أنهم لم يتذوقوا الأدب ولم يطعموا البلاغة و لم يعرفوا البيان.

القرآن الكريم كما يمثل المنهج الرباني والتوجيه البشري يحمل أبعادا دينية عقائدية ، كذلك يمثل قيمة جمالية عند القارئ والمتلقين، فتحدى البشرية جمعا خطباءهم وفصحاءهم وبلغاءهم تحداهم أن يأتوا بمثله، وقد جاء هذا النص إلى العرب بصيغة لغوية بليغة تؤكد الإعجاز فانقلبوا مبهوتين؛ فلغة القرآن من جنس لغتهم ، كيف وهم صنّاع فنون النثر والشعر، و قد كانت هذه المفارقة حافزا قويا لأن يقترب من هذا النص المخاطبون به حتى يمكن لهم الوقوف على حقيقته الإعجازية الجمالية.

جاء النص القرآني يحمل جوامع الكلم، و دعاهم لمجاراته فانتصر عليهم، انتصر عليهم عقيدة وتأليفا و تركيباً. و رسم بذلك نظما متناسقا متماسكا كأجمل ما يكون البنيان في غاية التمام والكمال، فجمع بين الإعجاز في محتواه العقائدي التوجيهي، و بين بيانه اللغوي البليغ، أنتج نظما جديدا، و في الوقت ذاته ينتمي إلى اللغة التي وصلوا فيها إلى القمة و الرفعة و العلو.

لم يحظ كتاب العناية والدراسة والاهتمام كما عني بالقرآن الكريم، على مرّ السنين و كرّ الأعوام قام المهتمون بشأن الإعجاز في القرآن بدراسات و مؤلفات تكشف عن الجهة التي كان بها التحدي، فجاءت هذه القراءات لتثمين الدراسة القرآنية، فالقرآن ثابت عبر الزمان، و لا يختلف في ذلك اثنان، و هذا لا ينافي دراسته في إطار المفهوم البلاغي الحديث و المحاولات الحثيثة لمقاربة النص باعتباره صالح لكل زمان و مكان، ينظر إليه من جانب التلقي و تعدد القراءة التي لا تشذ أو تأول مفهوم النص إلى تفسيرات بعيدة تنال من قداسته، و النص الجيد هو ذلك الذي لا يرضى بأن يقرأ قراءة واحدة تزعم لنفسها أنها القراءة الوحيدة الممكنة، نقول هذا مع تحفظنا على القراءة المتعلقة بالقرآن بالمفهوم الغربي الذي لا يعطي للنص قداسته أيا كان هذا النص، نتعامل معه على أنه نص إلهي عبر قراءات متعددة قد تتباين و تتمايز كما كانت قراءة السابقين كالجرجاني والباقلاني و الجاحظ و غيرهم على اختلافها و تباينها، إلا أنها تسعى جميعا للوقوف على القيم الجمالية التي تحقق الإعجاز.

و الذي يهمننا هنا هو الوقوف على الاتجاهات التي تناولها المهتمون بشأن الإعجاز للنص القرآني قديما و حديثا خاصة مع مصطفى صادق الرافعي الذي أعطى للنظم جمالية تفرد بها عن سابقيه مما أصبغ على هذه الدراسة لونا جديدا مميذا في البحث عن التركيب و التناسق الجمالي لكتاب الله.



جامعة المسيلة

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

طور الماستر

جماليات النظم

عند مصطفى صادق الرافعي

من خلال كتابه "إعجاز القرآن"

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في تخصص : نقد أدبي حديث

إشراف الأستاذ:

• عبد القادر العربي

إعداد الطالب

• محمد توامة

السنة الجامعية: 2014/2013